فى لهيب الشمس

رأفت سليم



في لهيب الشمس

قصص قصيرة

رأفت سليم

لوحة الغلاف الفنان . خوان ميرو

الطبعة العربية الأولى : يوليو ١٩٩٨

رقم الإيداع ٩٢٨٩ / ٩٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-291--092

DL

مركز
الحضارة
العربية

السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس: ٣٤٤٨٣٦٨

فى لهيب الشمس

قصص قصيرة

إهداء

إلى حفيدتّى

ليديا و ماريا

رأفت

صديق على الهامش !

-١-

كلماته ، أراها كحشرات صغيرة ، يكتبها بيد مرتعشة ، تحت ضوء شاحب لأباجورة قديمة ، وضعها على منضدة فى الركن ، بجوار الحائط .. يتقدم القلم بطيئاً فوق الأوراق التى تسرى فى أليافها صفرة غامضة .. أقف خلفه ، لا أتحرك ، أحبس إنفاسى ، لكنه يسمعها ، لا يلتفت ليرانى ، أضع يدى على كتفه برفق ، أقول بصوت تشوبه رنة فضول :

- ما زلت تكتب ، على عادتك ؟ !

يقول دون أن يرفع وجهه إلىّ :

- كما ترى ..

- كأنك عبد للكلمات ! ..

يقول برجاء حزين :

- ليتك تدعنى الآن !!..

- سوف أفعل .. لكنى وجدت الباب مفتوحاً ..

- أعرف . أحسست بك وأنت تدخل بحذر ..

- ضايقتك ؟! ..

- لا . فقط ، الآن ، دعنى ! ..

أقول ساخراً مبتسماً :

- أتخشى عصيان أفكارك لو .. ؟

يقول بضيق :" لا ".. يدى على كتفه تبدو ثقيلة ، ينحنى قليلاً إلى الأمام ، أقول لنفسى بلوم :ليس حسناً دائماً ،عندما أجد الباب موارباً ،أن أدفعه وأدخل ! .. أسكن الطابق العلوى ، يشدنى بابه دائماً عندما أهبط ، ولأننا أعزبان تجاوزا الأربعين .. لكن زوجته ماتت فى العام الماضى دون أن تنجب، أصر على أن يبقى أعزبَ ، ألح الآخرون عليه بأن يتزوج ، يعرفونه، قالوا : سوف تضنيه الوحدة ... رغم ذلك لم يبال ، انصرفوا عنه ، يكتفى أى منهم بأن يطل عليه بنظرة مستريبة من خلال بابه النصف مفتوح على الدوام ثم يمضى فى طريقه .. لكنى الوحيد ، لصداقتى به ، الذى يدفع الباب دون استئذان ، فى أى وقت ، ويدخل .. ضايقه الأمر فى البداية ثم إعتاده فلم أعد أرى فى عينيه لوما عندما يجدنى واقفاً أمامه فجأة .. يظل مستلقياً ، أو جالساً ، على الكنبة القديمة فى المدخل ، إلى جواره المنضدة التى تعلوها الأباجورة والأوراق الكثيرة المتناثرة على سطحها الضيق .. بالقرب من المنضدة رف مثبت على الحائط يجثم فوقه مذياع ضخم من طراز قديم ورثه عن جده لأبيه ، يؤثر أن يحتفظ به ، يحرص عليه ..

كان الصباح ، هذا الصباح ، دافئاً ، والحياة تتدفق فى الخارج بضجيج معتاد ، قلت له : لماذا لا تفتح نوافذك للشمس ؟ ! ... أخذ ينظر إلى بشرود ،استدرت خارجاً .هتف بى: سوف أراك فى المساء..هل تأتى؟!

هبطت الدرج على مهل ..

* * *

عندمـا عدت هذه الليلة ، كـان البـاب مغلقـاً على غيـر عادته . دقـقت الجـرس ، سمـعت صوتاً غـامـضاً يأتى من بعـيـد ، لم يكن ثمة ضـوء فى الداخل سوى بصيـص .. فكرت أنه قد قد يكون نائماً أو خـرج لشأن ما .. كنت أشعر بـالملل ، قلت لنفسى : أنزل إليه - كمـا أراد - وليأتنس كل منا بالآخـر فى هذه الليلة البـاردة !.. كـان الهـدوء سـائدا على الدرج المضـاء بمصباح شاحب وحيد ، ولا أصوات لأطفال الآخرين يصخبون ، أو يلعبون صـاعدين هابطـين لا يكفون .. لكن ضـجـة الشارع كـانت تـتـصاعـد ، لا تنقطع.. سمعت وقع قدميه - أخيراً - يقترب من الباب ..

عندما فتح ، قال بصوت ضعيف وبلا احتفال : تعال .

دخل ، تبـعتـه ، وجـدت الأباجـورة مضـاءة كـالعادة ، تحـتـها أوراقـه الصفـراء، خالية إلا من بضع كلمات .. عـندما نظرت إليها فـضولاً ، قلت ضاحكاً :

- كعادتك ! ... ألا تمل ؟ ! ..

قال : لا .

- لكنك لم تقل لى يوماً ماذا ..

قاطعنى : لا تهتم !

أضاف بعد صمت :

- هي شكوى ضد رئيسي في العمل . أحاول كتابتها منذ سنوات ، فالرجل يضطهدني ، لا ينقطع سخطه عليّ ، رغم أني لا أقصر .. لا أتدخل أيضا فيما لا يعنيني ، وليس من طبعي الفضول .. مثلك !

ضحكت بلا حرج .. قلت : وبعد؟! ..

ابتسم بغموض ، قال :

-كلما كتبتها مزقتها ..على مدى السنوات ! .. لا أريد أن اكتسب مزيداً من عداوته لو أني قدمتها إلى أولي الأمر.. أفضل أن أتجرع غصص الإهانات أحياناً بصمت ، فلربما يهديه الله يوما فيكف أذاه عني ! .. لكنه لا يهتدي !! .. وكيف للص فاجر أن يهتدي ؟ ! .. يقول للآخرين إني أجلده دائماً بعينيّ وصمتي كلما التقينا !!..

قلت برثاء : يالصبرك ! ..

قال : تجرع الصبر يكون كثيراً أخف ضررا مما لو ..

سكت فجأة ، شعرت بهوانه على نفسه ، كان وجهه نحيلا ، شاحباً مشدوداً ، صار رثائي له حزناً ، جلست إلى جواره ، قال بضعف وهو يهم بالنهوض :

- أتشرب شاياً ؟ ! ..

قلت : لا ..

أظلنا صمت ثقيل ..

قال :

- الآن ، أين إلى تذهب ؟ ! ..

-جئت أسامرك بعض الوقت ..

- لا يحلو السمر بدون كوب شاى ساخن فى هذه الليلة الباردة !..

لكنه استمر جالساً جامداً وضوء الأباجورة ينسكب بيننا على الورق الأصفر .. ما لبث أن قال بتردد :

- الليلة أيضاً كنت أكتب وصيتى !! ..

قلت بدهشة : وصيتك ؟! ..

- لم لا ؟! ..

- لكنى أعلم أنك لا تملك شيئاً ! .. فلمن توصى .. بما لا تملك ؟ ! ..

قال بحزن :

- صدقت .. فلست أملك سوى أنفاسى ! ..

عندما عاد لصمته ، رأيت رأسه يميل بطيئاً إلى الأمام ، يترنح ، أسندته بذراعى ، بينما قلق غامض يجرفنى .. قلت ملهوفاً جزعاً : ماذا بك ؟ .. قل لى .. كان وجهه لا يزال شاحباً وعلى جبينه حبات عرق لامعة .. هلعت وأنا وأميل عليه ، أضمه إلىّ ، أردد ذاهلاً : ماذا بك ؟ .. وكانت ضجة الطريق خارجاً تصعد إلينا وتتبدد ، ترتفع من جديد ، صوت موسيقى راقصة أيضاً ينبعث من مذياع قريب ، وثمة أناس فى الجوار - بصوت عال - يضحكون ، رأيت عينيه تنظران إلى بثبات ولا ترياني .. فبكيت ! ..

-٢-

قراءة بأوراق قديمة :

* لفت رئيسى نظرى إليها ، كانت زميلتى فى العمل ، مكتبها بمبنى آخر ، أراها أحيانا .. كانت عادية ، لكنها تبدو هادئة .. قال لى الرجل : " لن تجد مثيلاً لها لو فكرت يوماً .. اعرفها جيداً ، ولأنى أعرفك أيضا شابا طيباً " .. صرت أشعر بها على نحو مختلف كلما لقيتها .. قال لى : " ولأنك كشقيق صغير لى ، أرشحها لك، فأنت لن تبقى أعزب إلى الأبد!".. شكرت الرجل ، بل خيل إلى أنى سأكون ممتناً له أيضاً بقية عمرى، من أجل ذلك!.. لكن إحساساً غامضاً راودنى برغمى،أخافنى، لكنى نسيته!..

ليلة العرس أغرانى بأن أكثر من الشراب لأكون على ثقة بنفسى وأشد جرأة .. قال : فى ليلة كهذه يحتاج المرء إلى ذلك .. صدقته ، فعلت .. لكنى شككت ليلتها فى أنى الأول فى حياتها ! .. قاومت شكى واستعذت بالله من وسوسة الشيطان ، ونسيت ! ..

بدأنا حياتنا سعيدين . كانت تبدو لى كنسمة رقيقة هبت على حياتى فجأة فى يوم قائظ ، أضاءت أيضاً هذه الحجرات بنور هادئ صاف ، لكن :

كانت لهـا أوقات شرود ، ولحظات من حـزن غامض ! .. لم ترفع صـوتها يوما فى مواجهتى ، كانت كثيرة الابتسام ، راضية .. وفى العودة كل يوم ، تسبـقنى ، ألحق بهـا متلهـفاً ، أجدها تـنتظرنى أمام مـائدة شهـية ! .. وفى الليالى تسامرنى بصوت عذب فلا أملّها .. وكان الرجل يتودد إلىّ ، يزورنا كثيراً ولا يود أن يتـركنا ، وكنا نحتفى به ، نجالسه .. كـانت تبدو فرحة به ، خجـلة دائماً وقلقـة ، وكلما نظر إليـها الرجل هربت مـن عينيـه ،رأيتهـما كثيراً.. لكنه كان يبدو عطوفاً ، يحضر لها الهدايا معه كلما جاء ، أخجلتنى هداياه ، قلت له : لا داع ، لكنه استـمر .. بعـد انصرافـه ، وعندمـا يتأخـر المساء، كنت آخذها بين ذراعى فتغـمرنى بحنان دافق ، وكانت تبكى أحياناً ربما لفـرط سعادتهـا معى ، حـتى يغلبنا النوم وقـد جفت دمـوعها ، لـنجد نفسينا غائبين ، سابحين فى دنيا وردية ! .. ولما لم تنجب ، لم أهتم .. عشنا حلماً اتـصل لعامين .. وفى صبـاح بائس حزين ، صـحوت لأجدهـا نائمة على ظهرها إلى جانبى ، واضعة يدها الرقيقة ، مرتاحة ، على صدرها جهة القلب ، وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامـة هادئة .. قبّلتها ، ناجيتها بأعذب الكلمات لتـسمعنى وتصحـو .. لكنها كانت قـد رحلت إلى عالم علوى ، تمرح فى سماواته ، وتشدو حول روحها أنغام شجية ! ..

بعـد الرحيل ، كنـت أتصورها فى صـحوى ، وأنا غارق فى أحـزانى اليومية ، وهى تضمنى إليها لأنسى ، لكن طيفها ، فى نومى ، لدهشتى ، لم يكن يزورنى ، فعرفت أنى فقدت كل دنياى إلى الأبد ! ..

برحيلهـا ، بدأ رئيسى يضيق بـى ، لوجومى وصمـتى ، يضطهدنى ، لا يحترم حزنى ، يتهمنى بأنى أنظر إلـيه دوما بنظرات لا تريحه ، كأنى أحمله

بها وزر رحيلها ، أو أننى أعلن لصوصيته على الجميع ، حقيقة اكتشفتها فجأة رغم حذره ! .. لكنى ما لذت إلا بالصمت ، حتى عشش فى كيانى ، وفى جدران بيتى ، وكلما أحسست به يخنقنى ، هرعت إلى أوراقى ، أبثها عجزى وضياعى ، أشكو لها وحدتى الممضة وعذابى الذى لا ينتهى .. ولأن طيفها صار عصياً : عرفت السهاد .. كنت أتأمل صورها كل ليلة ، أضمها إلى صدرى . سعيداً باكياً بلا جدوى ! .

ثم جئت أنت يا صديقى لتدخل دنياى ، بعد أن تفرق الذين التفوا حولى معزين ، فى البداية ، مذكريننى بأن هناك أشياء لا بد أن أتحلى بها ، أسمها الصبر ، والتسليم - بلا حول ولا قوة - لإرادة لا راد لقضائها ، لكنها إرادة تعرف العدل الذى لا نعرفه ، وتغمض على أفهامنا حكمتها .. جئتنى تجالسنى ، تؤانسنى ، تعيننى على النسيان ، وأمامك بابى المفتوح لك على الدوام ، وقد انفض الآخرون من حولى ، ولتكون صديقاً لى على الهامش ، ودوماً تتساءل ولا تعرف سر كلماتى وأوراقى الصفراء، ملاذى ، حتى انتهيت - فقد نفذ صبرى - إلى شكواى من الرجل ، أكتبها وأمزقها بلا ملل ، بلا شجاعة لأن أدفع بها إلى الآخرين ، أعلنها .. ولعلك يوماً تقرأ أوراقى ، إن لم تسبقنى فى الرحيل ، ولتروى عطش فضولك الذى لا ينتهى ، ولتذرف الدموع ! .. فهل تبكينى حقاً ، أيها الصديق على الهامش، يوماً ما ؟ .. "

قلت لنفسى ، ووجهه لا يفارقنى : لقد فعلت يا صديقى .. فى يوم رحيلك بكيتك بكل دموعى ، كأنك بعض أهلى ، وحتى جفت الدموع!

يناير ١٩٩٨


الشهاب

الصوت الشجى يتردد دافئا فى الغرفة :

- " إننى أعطيت ما استبقيت شيأ " ! .. [1]

ومتشياً مع الموسيقى ، مع الكلمات ، جلس مسترخيا ، هادئاً . النافذة مفتوحة إلى جواره ، يندفع من خلالها هواء صيفى رائق . الوقت قبيل الغروب . مد بصره غير بعيد . الأفق أحمر ، رمادى ، تغطس الدنيا فى موجات الظلمة الهابطة . ليل طويل معتاد ، لا يضيق به . الموسيقى لا تزال تملأ المكان ، والصوت ذو الشجن يحرك قلبه ، يحكى عن رحلة حياته .. هو أيضاً لم يستبق شيئاً مما لديه لم يعطه لأول محتاج طرق بابه .. الآن يجنى سكينة بالغة ، وسنوات عمره طالت ، جاوز الثمانين ، أصبح له فى نهاية الرحلة بعض أمراض ، بصر نصف كليل ، رعشة فى اليدين ، وخطوات بطيئة .. ثم هذا البيت الواسع الذى فرغ عليه بعد رحيل زوجته وعشش فيه على الدوام سكون ألفه ، أدمنه ، بعد أن ينصرف خادمه العجوز فى مثل هذه الساعة .. تفرق أبناؤه أيضاً ، صار لكل منهم حياته ، يعتذر - أحدهم - بالهاتف إلى الأب الوحيد : " لا عليك يا أبى ، سأعودك غداً " لكنه لا يجئ - (لا يشعر الرجل بالقلق عليهم) - حتى بناته نسينه إلا لماما ، يسمع

---

(١) من قصيدة الأطلال للشاعر على إبراهيم ناجى .

اعتذار أى منهن أيضاً عبر الهاتف ، مجرد الاعتذار ، يقول : " لا عليك يا ابنتى ، أعرف مشاغلك ، فقط أفتقد رؤية الأطفال !.. لا أود أن أكون عبئاً على أحد، تعرفين .. مع السلامة " ، يضع سماعة الهاتف بهدوء ، ينصرف إلى جريدته ، إلى المذياع ، يسمع أخبار الدنيا التى تدور حوله ، وبعيداً عنه، فى جنبات الأرض بحياد : لا يحزن ، لا يجزع ، لا يضطرب لأى شئ ، يتساءل بينه وبين نفسه : " ماذا علىّ - بعد - أن أفعل؟! " .. سريعاً ما يحس بالملل فيغلق المذياع ، يجلس على مقعده الوثير، يستغرق فى تأمل ما حوله حيناً ، يسرقه نعاس ما ..وفيما يشبه الحلم، يرى أضواء غامضة أمامه هذا المساء ، تسقط ، تحترق فى عمق الأفق الأسود كالشهب ، تشتعل من جديد وتنطفئ ، أصوات ناعمة أيضاً تنساب من لا مكان ، تشده إلى مزيد من الهدوء .. ثمة ملائكة ذوو أجنحة ، بوجوه طفلية شديدة الجاذبية ، ينشدون ، يدورون حوله فيمتلئ فرحاً ، يتمنى لو يطير بينهم ، لكنه مغلل إلى الأرض .. أفكار متناثرة بلا رابط تراوده ، يقف وسط الميدان الذى تنطلق فى أفقه الأسود أضواء الشهب وتنطفئ ، يعطى نقوداً وجواهر معه للعابرين ، يسعده العطاء ، الآخرون - بوجوه جامدة لا مبالية - يأخذون ، يمضون بما أخذوا ولا يشكرون ! .. يقلبّ يديه الفارغتين أخيراً : مبتسماً راضياً .. يتدلى ذراعاه إلى جانبيه تعباً .. يسير .. أمامه طريق تحفه أشجار جفت أغصانها .. لكن الشجرة العالية فى المتصف لا زالت مورقة مليئة بالأزهار ، على أغصانها يتنقل عصفور منفرد يصدح بلحن حزين .. الشجرة تُظل بناية غامضة تسبح فى الصمت والظلام ، خلف بابها الحديدى المغلق درجات رخامية صاعدة لا تلبث أن تنحنى وتختفى نهايتها فى عمق

الداخل ، رغبة غامضة تراوده فى أن يدق البـاب .. قد يفتحـون له ، فماذا يقول لهم ؟! .. وعندما يستدير ليمضي ، على الجانب الآخـر ، يرى أمامه خميلة ورود وأزهار ، ترفـرف فوقـها أجنحـة يسمع حـفيـفها .. الـوجوه الطفلية الرائـعة الحسن عـادت ، أخذت تحوم فى دوائر ، تتـصاعد، تختفى فجأة ..يحس بالغربة .. رغم ذلك يود من جديد لو يطير، قدماه لا تدوسان أرضاً ولا تشدها جاذبية ! .. لتـحمله أمواج سعادة ذاهلة إلى لا مكان ! .. لكنه يجـد نفسـه عارياً فـجأة فيـشعـر بالخجل ، ينكمش ، يـتوارى .. جب عميق ينفتح تحت قدميه ، ينزل .. يتـوقف خائفاً وحيداً ، تنغلق فوهة الجب .. صـوت غامض يـهتف به : " عـرياناً تعـود .. "[٢] بكاء أيضـاً بلا لوعة لأناس لا يعرفهم : يسمع فى الصمت ، يبتعد .. ينزل بلا توقف ! ..

نوفمبر ١٩٩٧

---

(٢) من الكتاب المقدس .

رحلة الذهاب والإياب

ألوذ بالصمت إزاء ماتبغين ، أتحير حيناً ، شارداً إلى عمق الفراغ الأزرق أمامى ، من خلاله تندفق الضجة العارمة ، متصاعدة من أسفل بلا نهاية : خليطا متضاربا من الأصوات ، وأنا ما حولت عينىّ عن محياك ، المتواثب فوق ملامحه البريئة دوماجيشان الفرح العارم بما حولك ، أحس بالتيه يجرفنى ، مثل قشة تافهة يتلاعب بى ، على سطح متلاطم الأمواج ، فأنكمش لائذا بذاتى ، محاولا ابتعاث دفئى الخاص الذى ما خذلنى يوما : ينتشر فوق الجلد المقرور ، جالبا لرأسى أيضا خدر النوم العذب ، مخلصنى من عذاب الحواس، تاركك تحدقين بلا ملل فى المرآة - مرآتك- وتبتسمين ، تمتزج نشوتك بسعادة طفولية وأنت ما اعترفت يوما بالزمن ! ..

أقوم فأغلق النافذة :

* سلطان النوم غلاب ، وطالب الأحلام أبله . عجز الواقع مضن يا حبى الوحيد ، مكتوب علينا ألا يضمنا مكان واحد ، يظله سقف . والحزن قدر ، سيال ينداح بلا صوت ، مسروق الخطى ، فى الأعماق : ساكن ، متقوقع داخل نبض العمر ! .. الليل والنهار علامات ، بصمات على رمال صحراوية ، لا تبددها الرياح .. فقدنا كل الأشياء الجميلة والحميمة معا ، قطفنا كل الأزهار ، استنفدنا عطرها بأنانية ، دسنا البقايا الملونة بنزق ، بطيش ، تحت الأقدام كنفاية ! ..

علامات الليل تبقى ، والنهار : محدقة أبدا ، بلا شماتة ! ..

ارى صورتك فى فراغ الغرفة وحيداً على الزجاج :

* تقولين : يأسك لا بد أن تنساه ! ..

أقول : نحاول معاً ، نعجز معاً ، نبتعث من دواخلنا فرحا ساذجاً يعين على الاستمرار في معايشة الوحوش البيضاء فى غابة اليوم ، والغد ، وكل يوم..والشمس الذهبية ما عادت تسطع، لا تمنحنا دفئا ،ولا تحرقنا ، نبتهل إليها باستسلام عاجز ونتلوى عطشا تحتها،أو نرتعش عند تناقض العلامة!..

ترددين بإصرار عابث : لا تحزن ، لا تيأس ، لا .. لا ، بلا نهاية ، لكن ما تنادين به مجرد وهم كاذب ، نحن - أيضا - نكذب ، والحواس .. كل شئ مرسوم سلفا ، ونحن يا حبى دمى صغيرة عاجزة فى يد ساحر يتسلى ، يقتل - بلا جدوى - مللا ساحقا محاصرا ، ألعابه نحن ، لا يأبه لمشاعرنا ، عذابنا .. يهاجمنا ملله أيضا فنتثاءب ، يجتاحنا إحساس اللاجدوى من الاستمرار ، نقدم - بشجاعة بالغة - أحياناً - على أنهاء اللعبة بلا أسى!..

اراك بين النوم واليقظة تطيرين من خلال النافذة المفتوحة :

* أواجهك بمساحات هائلة من الأبيض والأصفر والرمادى ، نتناثر بقعا فوقها : صغيرة وتافهة ، نضطرب .. والساحر العجيب الملول لا يزال يحرك الخيوط فوق المربعات الواسعة التى لا تنتهى عند مرمى عينيك الملونتين العاجزتين (أحس بأنى أغرق فى لجتهما ولا أطفو) . المربعات متجاورة : بالطول والعرض والإرتفاع ، وأنا شاخص أنظر ، أتوه ، أحس بالدوار ، أنزلق فجأة فوق مربع أبيض ، أصفر - رمادى .. مربع أحمر لا يلبث أن يمطرنى دما ساخنا ، وأنا ملقى على وجهى تحته ، فأمتلئ بالفزع ،

يحتاجنى .. أهم بالهرب ، أنهض ، أجرى ، أنكفى فوق المربع الأبيض ، ولعجزى أبكى بلا دموع ، أنظر إلى أصابعى الدامية ، ولجسدى الذى لطخ الشحوب الأبيض حولى ، أتأرجح فى ريح رعبى ، لحظتها - فقط - أعود فأسمع صوتك متصاعدا ، تقهقهين ساخرة مما ترين ، فأخبئ وجهى بين ذراعى خجلا ، وأظل مصلوبا على السطح العريض بلا تبرم ! .. ولكن صوتك ما منحنى يوما الشجاعة على المواجهة ، رغم أن الشمس ، كما تعلمين من قديم سالف ، لا تكاد تسطع إلا بنور أصفر هادئ ، يضئ ، مجرد أن يضئ ، وليجئ الليل العلامة ، يدخلنى فى كفنه الرمادى فوق الجليد بلا أمل فى الخلاص .. !

لا يلبث أن يدق جرس هائل الجرم ، فيستيقظ العدم فى ظلمة هادئة وحشية وعميقة ، ولأول مرة تلمع النجوم فى التيه الأسود العالى ، عيون صغيرة مرتعشة يغالبها بدورها نعاس ما ، عندما أنقلب أحس حينا بالتسامى ، بالفرح الغامض ، حتى يدهمنى إحساسى المدمر بالضياع فى هذا التيه ! ..

فوق حافة النافذة تعودين ، ترقصين شبحاً معابثاً :

* ومازلت تضحكين بلا صوت ؟! .. ذاب صدى الجرس ، بدا الصليل حاداً ، ثم أخذ يخفت ويتراجع ويذوب فجأة : جبانا مذعوراً (ويظل الكون ميتا ، تتحرك كائناته ، تسعى بلا جدوى على سطحه وتتطاحن ، ويرتفع الصراخ ، وأبدا لا يهدأ) ، وما عدت أسمع صوت قهقهاتك الجليلة ، ولا نداءك يستدعينى إلى المجهول .. فبالذاكرتك التى

لا تعى أى شئ ، فأنت ما عرفت الحب قبلا ، وعبثا تحاولين إثبات دعاواك : بالدموع ، بالنجوى ، بالهمسات ، بضغط زوائد صدرك المطاطية إلى صدرى ، بفحيحك .. تدركين أخيراً عقم الأمس واليوم والغد ، تنصرفين نزقة ، وقد نسيت سعارك فى صلابة الجليد حولك .. فأين أنت الآن ، لا ، لست أنت ، بل لم يعد لدىّ منك سوى ضحكاتك تأتى من بعيد ، أو عندما تعيدين علىّ بلا ملل ، كأسطونة مشروخة : لا تحزن ، لا .. لا .. فأظل أدور حول نفسى بعناد طفولى ، ولا أجدك .. تشدنى النجوم بارتعاشاتها الباهتة البعيدة ، مستحيلاً مضنياً يلهث خلفه البعض تحت السماء الزرقاء ، الوردية، البرتقالية : فوق سطح مريخ ميت ! .. أشتاق ، هذه اللحظة ، إلى أن تخدعينى ، أن تقولى لى : سوف نلتقى يوما تحت سقف واحد ، فأضحك من نفسى بأسى يسحق روحى ! ..

أغادر الفراش متلصصا ، محاولا اقتناص خيالك ، لكنه يفرمنى ، فأقف حائراً حزيناً :

* ثوبك المعلق الذى نسيته على مشجب الحائط عندى : وردى باهت ، تآكلت خيوطه (لكنى ما رأيت ، ما تعرى من جسدك من خلاله يوما) .. ولكنى أتمسح به ، أشم فيه عرقك ، عطرك ، صارا باهتين كذكرى بعيدة منسية ! .. ولكن الشوق إليك ، ضعفى المورث : يناوشنى ، يجعلنى عيياً مهتاجا متهافتا ، حتى لتكاد أن تصرعنى نسمة مارة فى عالم يحترق عطشا ، أكره نفسى وما ذنبى ؟! .. أحتضن الثوب الوردى بين ذراعى لاهثا ، أضغطه ، أتشممه بنهم لا نهاية له ، لا أشبع ، لا أرتوى .. أتعذب كطفل قطعوا ثدى أمه ، أتذكر مطر المربع الأحمر ، أرى أصابعى الدامية ، تطبع

بصمـاتها على ثنيات الثوب مـجتمعـة ، تتمزق بقعـا صغيرة صـدئة عندما تتبـاعد طياته ، تفـترش النسيج ، أتـراجع بخوف ، بجزع .. أنسى شـبقى ، ألهث مـتراجعـاً إلى الفراش اللين ، منكـمشاً على ذاتى ، أحـاول أن أغطى القوقعـة ، لسطحها الأملس : يسقط الغطاء ، أظل عاريا مـقرورا ، ألجأ إلى البديل ! ..

ضوء النهار يظهر من جديد، بفراغ النافذة، إيذانا بانتهاء الليل العلامة:

* بالخوف أبدا المسيرة .. الطريق مـزدحم بالمركبات فى الليل والنهار ، أعبره وعـيناى تتلفتان فى كل اتجاه ، كـعينى دمية ميكانيكـية صنعت لإلهاء محشـوراً ، أدافع الآخرين بالجسم والذراع والقـدم من أجل مكان للقدم .. ضغط الأجساد حصار أبدى ، ينتهى إلى مكتب جامد ، أواجه الصورة على الحائط ، مـعلقة فى إطارها القـديم ، أنظر إليهـا بلا مبالاة ، يـأسا من زيف محاصـر (إنتهى عصر القـداسة بلا قداسة) ، يتقطب وجـهى على عادته ، أتأفف، والضـجة تتـسلل من خلال نافـذة الغرفـة وتدور رحى السـاعات: دائبـة، لا تمل .. الأصـوات فى الخارج لا تنقـطع ،ووقع أقدام الصـاعـدين والهـابطين عـلى الدرج الذى تآكل، دءوب .. لا تلبث الـشـمس أن تعـبـر نصف السـمـاء ، تتجاوزه راحلة إلى المغـيب.. يزداد التزاحم فى دورة أبدية فى كل الفصول ، فى تلك الساعة : رجال ونسـاء وأطفال يترنحون إعياء ، وأتذكر كلماتك وسط عالم مريض باللهاث ، أيها الطيف العصى المعابث ، تهتفين : لا .. وبإعياء مثلهم أضحك ، أندس عرقانا ، مطحوناً ، أسيانا ، لا ليس كل الأسى، فـقـد عـاد يتـجـدد ، فى العـودة ، مكان للقـدم !.. وعند

مـحطتى أهبط ، وتحت السـقف فارغ، إلا مـن فراش ضـيق ونافـذة مغلقـة بخصاصها الخشبي، تحتها منضدة صغيرة ، وكرسى واحد ، وبقايا طعام دب فـيهـا العفن .. أخـرج لسانى - لاهـثا - لكل الصـمت حولى ، ولا أكـاد أرغب فى لقـائك ، تاركا الـزجاج مـفتـوحـا ، يحدد إطاراه - على الحـائط خلفه- لوحـتين لبياض متـساقط ، كالح اللون ، تتوسطه بحيرات من نشع قـديم . فوقـه - يقينا - لن تبـدو صـورتك ، وما عـاد ثوبك الوردى عندى سوى منامـتى القديمة وقد بهـتت ألوانها وامتـلأ نسيجهـا ببقع صدئة ، فـما أرتمى على فراشـى ، أرى ملابسى فى الضوء الشـاحب ظلا، رجلا مـشنوقا يتدلى من مشجب الحائط، لا يلبث مع الصـباح أن يتحرك ، يسعل ، يهبط ، يأكل ، يدخن ، يقرأ الصحف ، يضحك ضـحكا باهتا ، يغلق الباب خلفه ، ينزل الدرج ، يعرف طريقه تماما ، قوى الذاكرة فى الذهاب والإياب ! ..

مارس(١٩٧٦)

عشاق الكهف

-١-

منتصف الليل :

- لا ، لم يعد الحزن مجدياً يا كنزى الغالى ، ولا الدموع ! ..

شفتاه مرتعشتان زرقاوان . وجهه شاحب . أنفاسه بطيئة ، تكاد أن تتوقف ..

الضوء ساطع مركز فى الحجرة ، الظلام - خارج النافذة - دامس ، يسقط فى الفراغ الأسود تحتها إلى بعد ساحق .. غربت الشمس وضاعت الأصوات الطاحنة طوال نهار منقض ..

همس ذاهلاً : الآن ، ماذا يبقى ؟ ! ..

الجسد الغض كان ينفث دفئه حتى الأمس ، يملأ الكون حوله حباً وفرحاً لاهثاً ! ..

- كنت محروماً ، ورغم ذلك ، ويوم عرفتك وأحببتك ، لم أكن ساذجاً ، فقدمى كانتا مغروستين فى طين الأرض ! ! ..

جلس جامداً إلى جوار الفراش . ساعات النهار طويلة . جرس الباب لم يدق مرة واحدة . يحملق بعينين شاردتين .. من خلال الباب المفتوح ، تنساب مربعات البلاط الملونة الزاهية أمامه : عارية ، فى المدخل الفسيح ، امتداداً لعالم لم يعد يخصه ! ..

ـ أيها الملاك القاسى الذى انصرف عنى ، كم أحبك ! .. ميراثى بعدك تمثال من شمع بارد ، لا بد أن يفسده السوس والعفن ! .. لكنى ، الآن ، أضعه فى صدرى ، فى نسيج ذاتى أخفيه ! ..

الهواء يندفع قوياً عبر النافذة المفتوحة ، لا يحس به ..

- لا ، لن أغطى وجهك مخفياً عينيك عنى .. كم عشقت بحرهما الشمالى ، عشقتك .. منذ عرفتك ، فى النهار والليل ، حتى وأنا أحلم .. امتزجت بلحمى ، أدمنتك ! ..

الوجه الفاتن فى إطار الصورة الذهبى ، بابتسامته المتألقة : شمس مضيئة على الجدار الوردى اللامع خلفها ، تحته أصيص من البلاستك يحوى زهوراً صناعية ذات أعناق ، طويلة إلى جوارها - فوق الطاولة الصغيرة - حوض بللورى تسبح فيه أسماك ملونة ..

- حتى فى الظهيرة ، إلى المائدة ،كنت كأنى أطعم عصفوراً صغيراً ، ثم لا يكاد أن يطير : حتى يسقط بين ذراعى ، أتلقفه متلهفا ، أضمه إلى صدرى ، خائفاً أن يفلت من بين يدى المرتعشتين إلى أرض واقع صلب لا يرحم ! ..

الضوء ، فى الغرفة ، يزداد سطوعاً .. لكن الثوب الأسود فى الخارج يتمزق ببقع باهتة .. عند ناصية الشارع ، على بعد ساحق ، أشباح تتعانق أيديها ، تتهادى حالمة فى الضوء الشاحب ، تختفى ..

ضم يده إلى صدره :

- الآن تقبض أصابعى سراباً خادعاً يتألق مصلوباً على جدار ! ..

-٢-

صباح قديم :

الأرقام الحمراء على اللوحة فوق الباب تضئ وتنطفئ ، تتراجع تباعاً والمصعد يهبط بلا توقف ..

١٤- كأن روحى تنسحب منى فى كل مرة (تضحك) ! ..

١٣- لا تخافى ..

١٢- (بحزن غامض) لكنى أخاف هذه السعادة ! ..

١١- (بلا تفكير) لعمرها القصير ؟! ..

١٠- (بلهفة حزينة) أتعرف أنها .. حقاً .. ؟؟

- لا ..

- عانيت كثيراً وأنا صبية يتيمة !..

٩- لكنى أغبط نفسى عليك ! ..

٨- (تتنهد)..

٧- ....

٦- لكن ، كلما تاهت عيناك عنى .. ؟!

- .....

٥- أتفكرين فى أحد غيرى ؟! ..

- تغار ؟! ..

-جداً .

٤- أشك أيضاً ! ..

- .....

- لكن يا ملاكى كيف أظلمك ؟! ..

٣- لكن الخديعة امرأة ، يقول الشيطان ! .. سامحينى ! ..

- أسامحك !

٢- (جاداً) لكنى أقتلك ايضاً ، لو طاف خيال رجل آخر برأسك الجميل !.. لكن كيف أعرف ؟! .. (تضحك) ..

صخب الشارع يندفع إلى مدخل البناية الكبيرة ، يغادران المصعد - يجرفهما !..

-٣-

اللصوص :

قالت : وجدته ، هذا المسدس ، بين أشيائك ، وأنت فى الحمام !!..

وضعته جانباً بخوف غامض ! ..

قال مبتسماً معابثاً : لماذا تفتشين أشيائى ؟! ..

قالت وهى تهز كتفها : فضول ! ..

ضحكت : لكن أتخاف ؟! ..

- ربما ! ..

- لكن اللصوص ، إلى الطابق الرابع عشر ، لا يأتون ! ..

- يأتون ! ..

- لكنك لا تخاف ، قل لى أنك ..

- لا أخاف وأنت معى ! ..

- يا حبيبى ! ..

لاذت بصدره كقطة أليفة ، غمغمت :

- لماذا تحتفظ به إذن ؟! ..

- عادة .

- محشو ؟

- دائماً !

- كأنك تخاف أيضاً غير اللصوص ؟؟ ..

قال ضاحكاً :

- ألا يخيفك الزمن بعد ؟! ..

- لكن .. لا يقتله الرصاص !

- ولا أى شئ !

قالت : يقتلنا ببطء . ضحكت .

قال وهو يدور فى الغرفة :

- وينصب نفسه قاضياً .. أخيراً ! ..

أسماك ملونة :

الأرقام الحمراء على اللوحة فوق الباب تضئ وتنطفئ ، تتصاعد تباعاً ، والمصعد يندفع إلى أعلى ..

٢- (وهو ينظر فى عينيها مبتسماً) سعيدة ؟! ..

- جداً .

٣- وأنا .

٤- (ضاحكة) تصور ؟.. حتى فى الصعود الآن ، نحن وحدنا ؟!..

- حظنا ! ..

٥- ...

٦- (معابثة) أتحبنى ؟! ..

٧- (يضحك) أعبدك ! ..

٨- متى تتزوجنى ؟ ! ..

- (بحماس ضاحك) الآن ، فوراً ! ..

٩- (برنة حزن) وماذا تنتظر ؟! ..

١٠- هل نستطيع .. ؟

- (تقول بذات الحزن) لا ! ..

١١- (بأسى عـذب وهى تنظر فى عينيـه) وضعت حـوض الأسمـاك الملونة فى غرفة النوم .. يضايقك ؟! ..

- أبداً ! ..

١٢- أحب الأسماك الملونة والفراشات ! ..

١٣- (معاتباً) فقط ؟! ..

- وأنت !

- .....

١٤- (بسعادة) أترى ؟! .. باب المسكن يـلمع فى الضوء الشاحب ، لعودتنا : كأنه يضحك ، يهش لنا ! ..

- صعدنا بسرعة ! ..

-٥-

الإختيار :

قالت : أنت تأكل بشراهة !! ..

قال بارتباك : أنا ؟ .. لا

قالت : تبدو قلقاً !

قال بلا اكتراث مصطنع : ولماذا أقلق ؟! ..

سحابة حزن صغيرة تطوف بوجـهه ، بعينيه ، شك غريب مدهش يدور برأسه كأنه يثقبها ، يحس بدوار ما ..

قالت : أستطيع دائماً أن أقرأ ما بعينيك !! ..

يبتسم بشحوب .

- قل لى فيم تفكر ؟! ..

قال وهو يتهرب من عينيها : ستغضبين لو .. ؟

أزاحت أدوات المائدة جانباً ، توقفت عن مضغ الطعام . قالت :

- تفاجئنى أحياناً بأشياء غريبة !! ..

قال بتوتر خفيف : أحبك حتى ..

تقاطعه وهى تحدق فى وجهه بقلق :

- أعرف ، لكن ماذا يدور برأسك ؟! ..

قال وهو يغمض عينيه :

- أشك فى .. فيك .. كأمى ؟! .. ألم أحك لك أنها .. ؟

هتفت بتوتر وهى تنهض من أمامه : مجنون ! ..

أخذت تدور حول المائدة: شاردة ،حزينة ، توشك أن تبكى، تتماسك..

يقول بلا تفكير : أتتهربين من .. ؟

توقفت ، قالت بغضب : مم ؟ ! ..

تبدو كنمرة هائجة ! .. تلهث ..

قال بحزن :

- أتعرفين ذلك الشاب الذى كان يجلس أمامنا فى النادى ، لم تتحول عيناه عنك ؟! ..

- لست أعرفه .

- كنت .. ؟

-ماذا ؟! ..

- كان وقحاً ! ..

قالت وهى تجلس بإعياء :

- ليكن من يكون !

- لأنه شاب ، ولأنى جاوزت الخمسين ، والمرأة تعشق ..

قاطعته بعصبية : اسكت . حاولت أن تكون هادئة . قالت :

- إخترت أن أحبك ، وأن أعطيك نفسى : بإرادتى ! .. لم أعرف أحداً غيرك بعد زوجى .. هاجر زوجى إلى الخارج ، لم أكن أحبه ! .. قلت لك كل شئ ، حتى عن رسائلة التى تطاردنى من هناك لألحق به ، لكنى لن أتبعه.. الحياة هنا تروقنى .. لا رجل آخر بعدك .. لم أسالك أيضاً عن ماضيك ، ولو فضولاً ، فلتهدأ مخاوفك إذن ؟؟ ..

بقى جامداً واجماً ، ينظر إليها ولا يراها ..

قالت بصوت متهدج :

- كأنك لا تصدقنى ؟! ..

أخذت تبكى ..

* * *

فى الفراش ظلت نائمة وحدها ، وساعات الأصيل تتتابع . الشمس لا تلبث أن تغيب وتهبط الظلمة بطيئة ، والهواء فى الأعالى قوى صاف .. النافذة مفتوحة ، وأنفاسها تتردد هادئة ، حتى الملامح المتوترة ما لبثت أن لانت واستكانت ..

فى الشرفة جلس وحده . الصحراء أمامه : ممتدة بعيدة برمالها الصفراء الناعمة تلمع فى ضوء الشمس الغاربة . جلس على كرسى لين . عندما غربت الشمس وذاب ذهب الرمال الصفراء البعيدة فى الظلام الهابط : شعر بغربة محاصرة تجتاحه .. تهدلت ملامحه ، همس : ماذا دهانى ؟ ! ..

قال لها : حياتى فارغة ، وتحتاج إليك !..

قالت ببساطة آسرة : وأنا أيضاً ! ..

أخذت تتأمل وجهه الأسمر باهتمام بعد أن دعاها إلى الجلوس إلى مائدته .

قال جاداً : أنا رجل محظوظ ! ..

ابتسمت . وجهها متألق أبداً فى الضوء والظل ! ..

قالت : هل تجئ إلى النادى كثيراً ؟ ! ..

- سأجئ كل يوم !

- من أجلى ؟! ..

سكت ، ضحكت ، قالت : سنلتقى كثيراً ! ..

فتح عينيه . أضواء البنايات القريبة تلمع متناثرة فى الليل الهادئ . قال لنفسه : بداية لم تكن تنبئ عن كل السعادة .. لكنى ، فى هذه الظهيرة

أحطم كل شئ !! ..

- ولأنك تمضى ، يا سيدى ، بلا عودة إلى خريف العمر ، وهى امرأة صغيرة يانعة ؟ ! ..

- ليست صغيرة ، قالت لى ..

- أنثى ذكية ، تكذب عليك ، تريد الاحتفاظ بك ،ولو مؤقتاً..لا تحزن!

همس متوتراً :

- وسواس لعين !

بلهفة ، أشعل سيجارة . الظلام يقتم لونه ، الأضواء - قريبة وبعيدة - تزداد سطوعاً .. اتكأ على سور الشرفة ، أخذ يتابع السيارات وهى تمرق فوق الطريق الملتمع الأسود البعيد تحته ، تبدو كلعب الأطفال .. أشباح الأشجار الدائمة الخضرة أيضاً تتناثر على طول الطريق ، أمام البناية العالية المواجهة ..

ما لبث أن غادر الشرفة إلى الداخل .

فى غرفة النوم : رآها نائمة هادئة فى منتصف الفراش الضيق ..

(عندما يتأخر الليل ، يأخذها بين ذراعيه ، فلا تلبث أن تنام بينهما : طفلة صغيرة يتيمة ! .. يظل مستيقظاً إلى حين ، ينصت لأنفاسها الهادئة ، يغلبه النوم أخيراً) ..

استمر يجذب أنفاس السيجارة . استدار عائداً ، رأى المسدس وحوض الأسماك وآنية الزهور ، وهو يخرج ، تلمع - معاً - فى ضوء المدخل الشاحب المتسلل إلى الداخل . الأسماك الصغيرة فى الحوض البللورى ،

بقع قائمة تتحرك : ترتفع ، تهبط ..

قالت :

- أنا أحب الأسماك الملونة والفراشات !

- فقط ؟!

- أحبك !

ابتسم بأسى ، سحق بقايا السيجارة فى المطفأة بجوار آنية الزهور .. عندما أحست بوجوده فى الغرفة : استدارت ، فتحت عينيها ، تأوهت ..

قال بلهفة : ماذا بك ؟! ..

قالت بإعياء : قلبى يوجعنى ! ..

هتف وهو يهرع إليها :

- ماذا ؟؟ ..

- لم يؤلمنى قبلا ! ..

انهار جالساً إلى جانبها ، قال بخوف غامض :

- أأنا السبب ؟! ..

- لا .

- سامحينى .

ضمها إليه بقوة ، لفت ذراعها حول عنقه ، وهى تنهض جالسة ، تمتمت وهى تبتسم لنفسها بشحوب :

- لا تخف ، لن أموت ! ..

ساد بينهما صمت غريب ، أمسك بيدها ، رفعها إلى شفتيه ، قال :

- لا تتركينى وحدى !.. لحظة تفكرين أن .. أمتلئ رعباً !..

قالت بإعياء : كيف أتركك ؟! .. قامت لتجلس أمام المرآة ، تمشط شعرها الذهبى ..

قالت معابثة: يقولون أنى أشبه الممثلة شوشو حكمت؟!.. أتعرفها؟!.. هل رأيت فيلمها الأخير : الكهف ؟!

صوتها متعب ، مشحون - أيضاً - بالنعاس ..

وقف جامداً خلفها ، تراه فى المرآة وهو يحملق فيها بخوف غريب ، يغادر الغرفة ..

هتفت به : إلى أين ؟ .. لا تتركنى .

أختفى خلف الباب .. ليبكى .

عادت إلى الفراش بإعياء ، تمددت فى ثوب النوم الوردى ، أغمضت عينيها .. أنفاسها تتردد هادئة ..

-٦-

الفجر :

الوجه المتألق داخل الإطار ، يبتهل إليه ذاهلاً ..

- الآن ، ماذا يبقى ؟! ..

الفجر يوشك أن يطلع ..

قالت : الزمن يقتلنا ! ..

قال : وينصب نفسه قاضياً .. أخيراً ! ..

يود لو يضحك بأسى ! ..

الجو حار فى الغرفة ، أغلق النافذة عندما بدأت رطوبة الليل تهبط وقسوة الهواء تضرب الخصاص الخشبى ، تطير الأشياء حوله - ليظل وحده معها ! ..

على الطاولة بجوار أصيص الزهور الصناعية ، يرقد المسدس بارداً ، يرنو إليه منذ الأمس ، يلمع فى الضوء .. بلا تفكير ، أمسك به ، نظر نحو كنزه الغالى ، تقدم إليه ، غطاه بملاءة الفراش البيضاء .. عندما استدار رأى وجهه فى المرآة مهزوماً متهدلاً ، يطل عليه .. رفع يده إلى رأسه ، ارتعش ، سقط الموت المعدنى البارد على الأرض بصوت مكتوم ، تدلى ذراعه إلى جانبه بإعياء ، بدأ نشيجه خشناً متقطعاً ، يرتفع فوق الضجة البعيدة لنهار يزحف وئيداً .. !

يوليو ١٩٧٨

الربيع يدق الأبــواب

-١-

*** بين حصار الصمت والتذكر تتقد حرارة القلب .**

آب المساء أخيراً إلى البلدة الصغيرة فساد السكون ، خلت الشوارع من المارة إلا من قليلين يعودون كعادتهم إلى بيوتهم فى ساعات الليل الأخيرة ..

محطة القطار الذى رحل منذ قليل شبه مهجورة ..

من أولى عرباته هبط العائد مع الآخرين ، كان يبدو كمن يستيقظ وشيكا من حلم طويل ممل ، بيده حقيبته . لساعات ظل ينصت صامتاً إلى دوى العجلات المنتظم على القضبان ، غائباً عما حوله .. فى المقصورة ، استسلم الباقون إلى نوم متقطع قلق ، لكنه - أبداً - لم يستطع أن يغفو .. بدا له المكان غريباً لأول وهلة عندما نزل ، وقف حائرا يتلفت حواليه .. تقدم نحوه حمال كان يغالب النوم بجوار جدار ، رأى حقيبته الصغيرة فارتد عائداً لينعس من جديد ! ..

عربة حنطور وحيدة واقفة خارجاً أسفل السياج ، حصانها الهرم يقف جامدا مغمض العينين ،حوذيها صبى صغير ، على مقعده ، بدوره ، يداعبه الوسن .. عندما صعد العائد تحركت العربة وحدها ببطء ، عاودت الحصان، والحوذى أيضا يقظتهما - أخذت تدرج على الطريق .. بدا صوت العجلات على الأسفلت مرتفعاً فى الصمت ..عندما تركها العائد أمام

البيت ، ألفى المدخل معتماً . الأضواء أيضا فى كل الطوابق خافتة .. أخذ يصعد الدرج بتراخ ، مسكنه - غرفة وصالة - على السطح .. نفض الغبار عن كنبة المدخل بعد أن أغلق الباب خلفه بهدوء . ألقى بالحقيبة على الأرض فتمددت أمام قدميه ،جلس يلهث حينا ، أحس بجفنيه ثقيلين فقام ليبدل ، فى الداخل ، ملابسه . لحظة أن أضاء نور الغرفة ، رأى الفئران تتقافز حوله فى كل اتجاه لائذة بالفرار .. عاثت فساداً فى قطن المرتبة والوسائد ، وقف جامداً .. كل ما حوله يكسوه التراب . حزن طازج يتمدد فى صدره . يتنبه إلى صورة حبيبته ، فى مواجهة الباب ، معلقة على الجدار، اطارها الفضى عتم لونه ، شحب وجه الزجاج .. لدهشته لم يتذكرها حين دخوله . أخذ يتأمل الملامح الغائمة التى ملأت فؤداه وجداً فى زمن قديم سالف ، لكن الوجه فجأة رحل بعيداً ! .. أبدل ثيابه .. فى الخارج استلقى على فراش الكنبة ،نجا الفراش من عبث الفئران ، لا يدرى كيف .. أغمض عينيه ، غلبه النوم ! ..

فى الصباح ، وجد كل شئ فى واقعه لم يتغير : لم يتحرك حجر من مكانه ، ولا توقف دخول الشمس إلى الغرفة المطلة على الشارع ولا انسحابها وقت الغروب .. أصوات الأطفال على الدرج ، ثرثرة النساء خلف الأبواب ومن النوافذ .. الأذان فى أوقات الصلاة ، يرتفع كعادته من الجامع القريب .. أفواج المارة طوال النهار والليل ، ضجتهم فى الذهاب والإياب ، نداءات الباعة فى السوق القريب ..

لكن الشجرة العالية التى تُظل جانب البيت شاخت ، تعرت من أوراقها، بأغصانها لم تعد تنبت الزهور ، والربيع يدق الأبواب ! ..

* في المدينة الساحلية ترك قلبه وعاد بصدر تتردد فيه أنفاس الخواء والريح .

عرف الحزن الطازج ، لأول مرة ، هناك . عند شاطئ البحر ، كلما هرب إلى نفسه ، رأى وجهها يرنو اليه ، يتذكر كلماتها الأخيرة ليلة الأمس : -

- تغيرت مشاعرى نحوك .. فلا تلمنى ! ..

لحظات وداع قاسية ..

قالت :

- لا تحزن ، وتعلم كيف تنسى ، والزمن يداوى كل الجراح ! ..

على وجهه ترتعش ابتسامة ، تتردد بين الشحوب والأسى ..

ود أن يقول لها : كيف ألومك ، وأنت امرأة بلا قلب ؟ ! ..

أغمض عينيه ، قال لها :

- عندما عرفتك وأحببتك ظننت أنى أداوى الجرح القديم ، يوم أن أختطفت منى القوة القاهرة حبى الأول .. جرى الزمن أيضا ، صارت حبيبتى مجرد ذكرى ، وصورة على جدار ، فى بيتى الخالى ، هناك فى بلدتى ، طمسهما غبار النسيان !..

فتح عينيه ، أخذ يتابع النوارس تطير فوقه فى الزرقة الصافية الرحبة ، تنقض على السطح الهادئ المتماوج ، تطير من جديد .. الأفق يمتد أمامه

بعيداً بلا منتهى، راق النسيم ..يسير على الشاطئ الخالى ، صيادون على البعد ، ينشرون شباكهم ، يسعون وراء رزقهم ، ربما لا يعرفون الحب فى الزمن الصعب !..

قال لها :

- سوف أتعلم ، كما تقولين ، كيف أحيا مثلك لساعتى ، بلا امتداد ، وحتى لا يفترسنى اليأس والأسى على سنوات عمر ضائع ! ..

غادر مكانه ، سار يدوس القواقع الفارغة الصغيرة بألوانها الباهتة ، تتكسر تحت قدميه ، تنغرس فى الرمال ، صعد إلى طريق الكورنيش ، وقف حينا يتابع السيارات تروح وتجيئ بدأب .. عبر الطريق .. قال لنفسه : سوف أرحل عائداً إلى بلدتى البعيدة ، ناشدا السلوان ، لائذاً بغرفتى الوحيدة التى لن تضيق بى ! .. كاد أن ينفجر ببكاء خشن ، تماسك .. ضجة الطريق تجرفه، ينحشر وسط الراكبين بإحدى الحافلات فى طريقه إلى محطة القطار، وكانت الشمس تنحدر إلى المغيب ! ..

-٣-

* تجوس الأقدام الصغيرة فى مسكنه بلا ملل ، تعيث فسادا :

كانت همته خامدة ، لا رغبة لديه للنضال ضد الفئران ، لكن عليه ، رغما عنه ، أن يكافح تراب الغياب ،لتعاود عجلة حياته الدوران بيسر، كما كانت ، فى مدينته التى ما ضاقت أبداً بعودته .

من لحظات السكون ، كلما أتى المساء ، يستمد عزاءه .. يهجع البيت بطوابقه إلى رقاد ، بعد نهارات حافلة ، تتردد أنفاس النائمين هادئة تحت السقوف لتدفئ الحجرات ، تصير حينا إلى لهاث محبوب بين اثنين وقد نام الأطفال أخيراً !.. يلوذ دوما بصمت القراءة . الكتب التى أحضرها ليغرق فى سطورها باحثا عن السلوان : تتكدس على منضدة صغيرة بجوار الفراش الضيق البارد ، بينها منبه قديم (يتك) طوال الليل ، أعتاده فلم يعد يسمعه ، وعندما يأتى سلطان النوم يسلم رأسه إلى الوسادة حتى صباح جديد فيهرع إلى عمل هجره لسنوات فى المدينة البعيدة ، ليعاود حنينه اليه ، فى دكانه الذى أغلقه وذهب يبحث عن أحلام قلب يترصده العطش ! .. الكتب تحكى له على الدوام عن عوالم يسودها الحب والعدل والسلام ،عن جنان لا بد أن يصنعها مع الآخرين على الأرض ، فيمتلئ الكون فرحا وتمتلئ عيناه بالدموع ! ..

طوال السنوات ، هنا ، لم ير الفئران إلا نادرا ، لكنها - منذ عودته - تعايشه ، يسمع دبيب الأقدام الصغيرة كل ليلة ، يرى شواربها وعيونها الزجاجية : تنظر اليه بجمود ، بتحد ، مخلفاتها فوق الكتب والصحف والفراش ، وفى صحاف الطعام ! ..

هذا المساء ، عندما عاد وجد جريدة الصباح التى لم يقرأها بعد ، تاركها لليله ، قد تمزقت .. تبعثرت الكتب أيضا على الأرض .. نظر اليها بأسى ، لكنه - باصرار - عاد يحلم بأن الفئران هجرت مسكنه ، طردتها أنفاسه الدافئة فى الليالى فلن تعود من جديد ، من خلال النوافذ المفتوحة : سوف تتدفق أمواج الهواء الباردة وحدها ، بقايا أصوات الجيران ، وصخب

هامد معتاد للطريق أسفله .. نظر نحو السـقف ، تحته ، وجد فأراً كبيراً يطل عليه مـن فوق دولاب ملابسـه ، بعينين خـرزيتين ثابتتين ، بشـوارب دقيـقة كالآخرين ، لكنه يقفز فجأة إلى الأرض ، يندفع خارجا من الغرفة ، يتخبط فى قطع الأثاث والجدران فأغمض عيـنيه .. وفى الجوار ، سمع صوت قطة تموء ! ..

ابريل ٩٧

فى لهيب الشمس

حزن قديم :

يوم صيفى حار . متـصف النهار ، والشـارع الترابى الطويل يرزح تحت وطأة الشـمس ، يختـرق البلدة الصغـيرة .. يحـفل بحركـة المارة وضجـيج العجلات القديمة ، العربات تجرها دواب دب فيها الهرم ! ..

البـيوت على الجـانبين قميئـة ، واجهـاتها قـديمة ، نوافذها وشـرفاتهـا الخشبية القليلة تشققت وحال لونها ! ..

لكن البيت فى المنتصف لم تذهب ألوانه بعد ! ..

فى شرفة البيت وقف صبى صغير ، فى العاشرة ، يطل على الطريق غير عابئ بوطأة الشمس ، بينما جمـهرة من الناس فى تتابع طويل ، تشيع انساناً ما إلى مثوى أخير، تمر به محمولا على الأكتاف ، تحت الشرفات والنوافذ ، تثيـر أقدامـها الغـبار والأسى ، صـراخ ملتاع أيضـا وبكاء لنسوة فى نـهاية الطابور : بوجوه معفرة ، بملابس سوداء ، يتعثرن فى خطاهن ، وقد توقفت حركـة الشارع الطويل إلى حين .. الصـبى ينظر بجمـود ، رعدة تهز كـيانه النحـيل ، يغادر الشـرفة ، يتـذكر رحيل أبيـه منذ عام ، فـى يوم خماسـينى عاصف .. حزن قـديم يستيقظ فى صدره ، يتقـاطر فى داخله ببطء أسيان ، يجهش بـالبكاء .. الرؤى القديمة ، فى خـاطره ، تبدو له غـامضة مـثل حلم حزين بعيد ، أو كابوس فى ليلة أرق ! .. وعندما تبهت التفاصيل : يتوقف

نشيجه ، يركن إلـى هدوء ، يجلس ، يمد ذراعيه إلى جانبيه ، سـاقيه أيضا ، يغـمض عـينيه ، دقـائق الصـمت تتـوالد حولـه بلا توقف ، تنتـشر - مـثل حشرات صغيرة - على أرض الحجرة ، على الجدران ، بينما أمه فى الداخل لازالت نائمـة حتى تلك السـاعة ، يهـزمهـا إعياء الأمس ، والـبيت متـسع هادئ! ..

البحث عن الذهب :

مد بصره من فوق الربوة ، رأى سفح الجبل تحـته ، مثل كل يوم ، عميقا ممتدا ، حافـلا بالوحشة . الرمال الصـفراء ، تحت الشـمس الحارقـة : ذهبية ، قاسية القلب ، ترتفع كثبانها أقماعا مخروطية ملساء تزيد من وحشة السفح العـريض.. غطاء الرأس ينـكفئ على وجـهـه ، يحـجب عن عـينيـه حـدة الشمس، والعـرق يتفـصد من جبـينه بلا توقف ، يمسحـه بظاهر يديه بملل ، وهو واقف : طويل فـارع ، ينتظر : منفرج السـاقين ، ينغرس نصـف حذائه الضخم فى الرمـال .. الكوخ - خلفه - تئن ألواحه الخشبية لشـدة الحرارة الزازحـة .. عـاد إلى الكوخ ليـتـجـرع ماء بارداً ، وفـى انتظار - بلا ملل - لعودة الآخـرين بالرسائل ، رسائل أمه الـعجوز تأتى اليه ، ولدها الوحـيد ، صـغيـر الأمس المتهـافت ، من قلب المدينة البـعيـدة كل شهـر .. تمدد على السرير السفرى الساخن باعياء ، جذب غطاء الرأس على وجهه وغفا ..

فى الخارج ، من خلال البـاب الخشبى المفتوح ، كان هدير سـيارة الجيب يقتـرب من الموقع وقد مالت الشمس عـن منتصف السماء ، زمـلاؤه الثلاثة

يترنحون تحت وطأة اهتزازات العربة على الطريق الصخرى تحت الجبل المؤدى إلى تلك البقعة الموحشة من الصحراء ، جاءوا - مكلفين - للبحث عن الذهب ! ..

سقوط الرسائل :

الطريق يبست على جانبيه الأشجار ، فروعها الجافة تطعن الفراغ الأزرق الصافى والشمس ترسل شواظها على الطريق الممتد نحو الجبل .. السماء أديم وحيد ناصع الزرقة ، وعلى الأسفلت الساخن جسد نحيل منحن على دراجة قديمة : يغذ السير ، يلهث ، على رأسه منديل مربوط تحت طربوش قديم قصير : ابتلا بالعرق ، والنسمات شحيحة .. البلدة الصغيرة على مشارف الصحراء المترامية تبدو بيوتها بيضاء شاحبة على البعد ، بضع أشجار أيضا تبين أعاليها - هناك - باهتة الخضرة .. وعلى مقعد الدراجة الحديدى خلف الرجل : حقيبة تشقق جلدها ، انتفخت بالرسائل ، مربوطة بقطعة من حبل قديم ، يأتى بها فى رحلة عذاب أسبوعية ، فى هذا الصيف القائظ ، يتطلع فى كل مرة إلى الشجرة الضخمة الوحيدة فى منتصف الطريق ، يكون السير قد كده ، تتباطأ حركة ساقيه ارهاقا ، ينحرف نحو الشجرة ويتوقف ، ينزل من فوق دراجته لاهثاً يسبح فى عرقه ، يتركها ترتمى مع الرسائل على الأرض ، يتهاوى إلى جوارها ، يجلس فى الظل الساخن ، يلتقط أنفاسه ويغفو ..

يوليو ١٩٩٥

عروسة وعريس

يكاد الطريق أن يكون خاليا من العابرين إلا من ثلاثة : أحدهم قصير ، بدين ، يسير متباطئاً كأنه يتسكع ، الآخران : رجل وامرأة ، يتحادثان بصوت خافت ، ينعطفان إلى الشارع الجانبى المتفرع إلى اليسار .. الساعة تقترب من منتصف الليل ، والرجل البدين يتلفت حواليه مستريبا ، يعبر الطريق ليغيب فى الظلام البعيد ..

ساد الصمت بين الرجل والمرأة عندما مرت سيارة خافتة الأضواء خلفهما ، تجاوزتهما وأسرعت حتى أختفت أيضا فى البعد ..

قالت السيدة لرفيقها : " ما دام البيت بعيدا ، فلماذا لا .. ؟ " فأخرج الرجل سيجارة أشعلها وأخذ يدخن بهدوء ..

عادت تقول : " هل سمعتنى ؟" وكأنه - باصرار - لا يسمعها فقد ظل يجذب أنفاس السيجارة بشرود ولا يقول شيئاً فلاذت بالصمت اضطراراً ! ..

كان الشارع على عادته هادئاً، تغلق دكاكينه أبوابها قبل منتصف الليل ، تتخافت أضواء الطوابق الأرضية للمنازل على الجانبين فيسود الظلام الشاحب كل الأرجاء ..

كان الرجل مشغولا بأفكار كثيرة ألحت عليه منذ أن التقط هذه السيدة من الطريق ! .. رأى نفسه فاشلا فى دراسته فدار وتسكع فى أماكن اللهو

بينما أيام عمره تجرى ضائعة كالهباء !.. فلا عمل أيضا ، وما الضير ، فهو يحيا على مال أبيه ، لكن الرجل أصبح يعطيه عن كره .. لكن مهما كان الأمر ، لماذا يأبه ؟ ! .. كل ليلة يعيشها كما يهوى : مع أصدقاء ، وكأس ، ودخان ، وبقايا إحساس بمغامرة عابرة مع امرأة ! ..

لكنه ، هذه الليلة ، لم يفكر فى المغامرة ، كليال نادرة ! .. عندما صحا من نومه متأخراً فى الصباح وتناول افطاره ، استسلم مرة أخرى للنوم .. مع بداية المساء أخذ يتمطى فى فراشه بكسل ، فكر : كيف سيمضى ليلته ؟ .. عندما غادر البيت إلى الطريق ، أحس بأنه يود لو يخلو إلى نفسه ، أن يسير طويلا فى هدأة الليل ، فى الشوراع الخالية ، يتأمل ما حوله كأنه يراه لأول مرة !.. مرت الساعات .. اقترب منه رجل وامرأة وهو عائد . الرجل البدين، المتسكع على الأرصفة ،لا يذكر أنه رآه قبلا،لكن الرجل همس له : " مساء الخير ". التفت اليه نصف التفاتة ، رأى المرأة أيضا .. كانت صغيرة ، ريفية الملامح ، تلبس جلباباً أسود لامعا ، وكان الرجل يلبس قميصاً وبنطالاً واسعين ..

قال الرجل البدين :

- تود السيدة لو تذهب معك هذه الليلة .. يابك !

ردد عابث الليالى :

- السيدة ؟ ..

- نعم ..

- لكنى ..

قال الرجل البدين :

- اعطنى خمسة جنيهات ، وسوف تذهب معك !! ..

هز عابث الليالى رأسه ، وضع يده فى جيبه - بلا تفكير أعطاه ما أراد ، أخذت خطوات الرجل تضيق حتى تخلف عنهما ..

عادت السيدة تقول :

- هل ما زال البيت بعيداً ؟ ! ..

كانت السيجارة قد تآكلت فى يده فألقى بها إلى عرض الطريق .. أخذت جمرتها تلمع كعين شيطان فى الظلمة ، تراءت للسيدة عندما التفتت إلى الخلف بخوف ، قالت بصوت مرتعش :

- هل هناك من يتبعنا ؟ ! ..

قال بلا أكثرات : " لا " ولم يلتفت .

قالت : " سوف أكون بأمان لو ظللت معك ! .. لست أريد العودة إلى هذا الرجل "..

قال : " مدى خطاك ! .. "

عندما وصلا ، كان مدخل المنزل مضاء ، والبواب يغط فى نوم عميق على مقعده الخشبى وقد تدلت رأسه على صدره وبشرته السمراء تلمع فى الضوء الشاحب ! ..

صعدا بلا صوت ..

وعندما انفتح باب الغرفة الوحيدة على السطح قالت :

- السلم عال . تعبت !

قال بهدوء بارد :

- اخفضى صوتك ! ..

فى الداخل ، خلف الباب المغلق وقفت تلهث ، أخذت تنظر إلى ما حولها. كانت الغرفة متسعة ، فى ركنها الأيسر ، بجوار النافذة الوحيدة : سرير صغير غير مرتب ، تناثرت فوقه أشياء كثيرة : مشط مهشمة الأسنان ، رباط عنق قديم ، لفافة بها بقايا طعام ، بعض الصحف المهملة . بجوار الفراش منضدة صغيرة فوقها شفرات وماكينة مفككة صدئة ، أسفلها سلة فارغة وموقد كحولى قديم . على الجدران أيضا تناثرت صور كثيرة لنساء عاريات متنافرة الألوان علاها الغبار .. مشجب الحائط تعلقت به منامته وفوطة متسخة ! .. وقف الرجل أمامها صامتاً . كان يحس بأنه لا يريد هذه السيدة أبدا فى ليلته ، ولا فى أى ليلة أخرى ! .. لكن ماذا يفعل وهى التى بدأت تنضو عنها ملابسها ؟! .. بدا مشمئزاً من عريها على غير عادته ، وقد تمددت فوق الفراش فأعطاها ظهره ! .. لم يغير ملابسه ، جلس على حافة السرير، خلع حذائه- ساعة يده كعادته ، وضعها على المنضدة إلى جانبه .. بدا تنفسه منتظماً وهو يمد جسده إلي جانبها .. عندما التصقت به دفعها عنه برفق فلبثت جامدة ، بدأ يسمع تنفسها لاهثا ثم هدأت ، قال لنفسه : هى

لابد فى دهشة منه ، وتسأل نفسها : لماذا جعلها تأتى معه وهو لا يريدها؟!.. أغمض عينيه ، قال لنفسه : فلينم ، ولسوف تنهض وحدها وتلبس ملابسها وتنسحب بهدوء ، وعندما استقر يقينه غلبه النوم !! ..

عندما نهضت السيدة وقفت بجوار الفراش تنظر إلى الرجل النائم بقلق، بدا غطيطه مسموعا خافتا فى الصمت السائد ، أخذت تلبس ملابسها ببطء ، رأت ساعته إلى جوارها ، دستها فى صدرها وتهيأت للرحيل .. فتحت الباب بحذر ، أغلقته خلفها بلا صوت .. ومرة أخرى إلى الطريق من حيث أتت !! ..

انسابت خطاها سريعا فى العتمة ، لم تلتفت ، لكنها عادت تحس بأن أنساناً ما يتبعها فامتلأت على عادتها بالخوف ، ارتعشت .. سمعت صوت سيارة قادمة خلفها ، تتسلل من نوافذها المفتوحة أصوات سكارى بصخبون، كانت السيارة تندفع برعونة على الطريق وتتذبذب فى سيرها إلى اليسار واليمين .. حاولت أن تأخذ حذرها ، فى لحظة صدمها السائق المخمور فارتمت على افريز الشارع بلا حراك ، لم تصرخ .. استمرت السيارة فى طريقها ، ظلها يتقافز فوق الأشجار والجدران ، يذوب مع أصوات السكارى فى البعد ..

المرأة ذهنها غائم ، على سطحه ترتعش صورة طفلة فى جرن القمح ، فى قريتهم ، تلعب عروسة وعريس .. عريسها طفل قصير بدين ، فى مثل عمرها ، يحتضنها ، يقبلها .. عندما يفلتها : تفتح عينيها ، تراه غرابا أسود ينعق فى وجهها ، يفزعها ، يطير بعيداً ، يحجب قرص الشمس فيحل

الظلام فجأة ، تصرخ ، تنادى أمها بلوعـة ، تنادى ، لا أحد يسمعها ، تندفع إلى الطريق الترابى خارج الجرن ، تتعثر ، تنكفئ على وجهها ..

فى الشارع الخـالى كانت بقـايا الأصوات الواهنة تتبـدد ، دقات قلبـها تتـخافت، تتبـاعد ، لكن دقـات السـاعة فى مكمنهـا الدافئ لم تتـوقف ، عقـاربها الفـوسفـورية تشيـر بضوء أخـضر إلى قـرب مطلع النهار ، بينـما البيوت على الجانبين ، بطوابقها العالية ، لا زالت غارقة فى السبات ! ..

يوليو ١٩٩٦

البوح

- ١ -

فتحة في الخصاص الخشبي المغلق ، يثقبها ضوء النهار الساطع ، يتلصص من خلفها ، يختلس النظر إلى شرفة المنزل المقابل عبر الشارع الخلفي الضيق . السيدة الواقفة في الشرفة ، بقميص النوم العارى تنظر نحو نافذته باهتمام ، توزع نظراتها بين المارة القليلين أسفلها ، ترفع عينيها نحو الخصاص المغلق بقلق .. يحس بسعادة ما إزاء انشغالها ، تحبه ، لا يحبها ! جمعهما ، منذ زمن لقاءان مسروقان ، الأول ذات ليلة شتاءباردة ، تسلل - بلا خوف ، بمنامته - إلى الشارع الخلفي الخالي . جاوزت الساعة العاشرة . كانت بانتظاره على الدرج ، أدخلته بسرعة وأغلقت الباب . أطفالها الثلاثة نائمون منذ أول المساء . لا رجل في البيت ، ترملت منذ سنوات خلّفت السنين عطشا في القلب ، لكنها لابد أن تعيش للصغار ، ولتسرق سعادتها معه ! .. في المدخل : احتضنها ، قبّلها ، انسحبا إلى الداخل ، صحا أحد الأطفال ، أخذ يبكي ، تجمدا ، هرعت إلى الطفل ، كانت ترتعد. تسلل عائداً (في الطريق استتر بظلام جدران الدور كلص ! ..)

اللقاء الثاني لا يذكره ! ..

كان تنفسه بطيئاً هادئاً ، وجهه شبه مضغوط إلى خشب النافذة ، فتح المصراعين بهدوء ، بانت ملامحه لعينيها في الضوء فلمعتا بسرور بالغ ..

تراجعت إلى داخل الغرفة ، أشارت له : "أريدك" ، هز رأسه ، كانت وحدها ، قالت بصوت خافت ، لكنه مسموع :

- علمت بعودتك : -

أشارت له بأنها تنتظره ، همست :

- فى العاشرة ، الليلة .. أنك توحشنى ! ..

أومأ براسه ، أغلق النافذة فى لحظة انسحابها أكثر واختفائها داخل الغرفة ..

-٢-

عاد فى المساء ، بالأمس ..

(فى البلد الصغير،على مشارف الصحراء،عاش لا يخالط أحدا !..)

الساعات الماضية - أيضاً - لا تنسى ، تغلف قلبه بالحزن ..

* عندما أراح رأس زوجته على ذراعه فى المساء وضمها اليه ، كما اعتاد أو عوَّدها ، ظلت صامتة .. كانت الطفلة ، طفلتهما الوحيدة ، قد نامت ، فى الفراش الصغير المجاور، نومها متقطع ، تنفسها مرتفع .. يحبها ، يعبدها ، حقيقته الوحيدة الجميلة الطافية فوق سطح بحر العواصف الصامت ..أنصت لتنفس زوجته البطئ ، وهى دافنة وجهها فى صدره ، لا تحبه رغم كل شئ . كتلة الجليد ، فى صدرها ، نبتت منذ أول لحظة فى

حياتهما معا ثم أخذت تقتات الساعات ، الأيام ، لتكبر ، لتصبح جبلاً ! ..

* غرفة مكتب رئيسه فى العمل : فاخرة الرياش ، مكيفة الهواء ، الوجوه اللزجة حوله فى الغرفة ، ظلت تنصت لبعض التفاصيل التى سردها بسذاجة ، بتوسل .. كانت الدنيا قائظة فى الخارج ، وأسفلت الطريق يغوص فيه قدماه عندما خرج .. أخذ يرتعش أيضاً عندما غادر مدخل البناية الرطب إلى الطريق ، ثم بدأ جسمه يسخن ويبرز العرق على جبينه..

* قالت له عندما عاد :

- كيف تدعه يهدر اجتماعنا تحت سقف واحد مثل كل البشر ؟ ! ..

قال لها : لم استطيع أن أصل معه إلى حل ! ..

قال لرئيسه: لحظات الاستقرار الممنوحة لكل الخلق بلا عناء ولا عذاب، حرمت منها ، ما ذنبى ؟! ..

قال لرئيسه : بيتى هنا ، يا سيدى ، جميل .. فى حى هادئ لا يمل الصمت ! ..

قال وجه لزج: إنه رجل طيب ،لا يهش ذبابة!.. مخلوق للصحارى!..

نظر إلى الآخرين وضحك بشماتة ! ..

قال رئيسه بحدة :

- خذ امرأتك معك والطفلة ! .. كيف تتكدسون كلكم فى المدينة ؟ .. والصحراء ، ما ذنبها ؟ ! ..

قال لها : ولأنك لا تريدين أن .. قلت له : لا تعيش النساء فى الصحارى يا سيدى ، حيث - هناك - يعشش فى قلوبهن البوم ، بعيداً عن كرنفال الظلال والألوان والفساتين والأشياء المستوردة ، فى نوافذ الحوانيت البراقة ، المضاءة بالنيون ، وسط الشرائط الملونة ، يا سيدى أنت تعلم .. ! لكن الرجل صرخ فى وجهى : " لا فائدة ، تفضل خارجاً ! " .. ضحك الحواريون ضحكات صفراء كوجوههم ، مبتورة .. دفع الباب ، وخرج ..

* الصمت ثقيل جاثم فوق الفراش ، والليل هادئ ووديع .. تحركت زوجته متخلصة من ذراعيه ، همست : " انى متعبة" ، تثاءبت ، قالت :

- ألا تريد أن تنام ، لتسافر مبكراً غداً ؟ ! ..

- نعم ..

قال لنفسه : " ما فكرت يوما - يا امرأة - ولو فى ليلة رحيل ، أن تعطينى لحمك ، أو جوهرة قلبك ، وهى من زجاج ! .. "

أعطاها ظهره ! ..

* الفجر ، ساعة العودة ، القطار .. لم يوقظها ، كانت تغط بصوت مرتفع ، منكفئة على وجهها ، أخذ يلبس ملابسه بلا صوت ، حتى لا يوقظ الطفلة أيضا .. ما لبث أن انسحب بهدوء ،فتح الباب وخرج ..

المدينة لا زالت نائمة ، ذاب شبحه فى عتمة الفجر الباهتة ..

-٣-

بلهفة ، أخذ ينبش فى صدرها ، بأصابع حانية ، مقصوصة الأظافر بحثا عن ... .عيناها مغمضتان ، تأوهت جذلة :

- يا وَحش !..

هتف بنفاد صبر ، بغضب طفلى :

- اعطنى جوهرتك !! ..

قالت بصوت ناعس :

- كيف لا تجدها ؟ !

- لا أجدها ! ..

أصابعه لا تزال تنبش ببطء ، بشرود .. قالت :

- إستمِر ..

الليل طويل ..

قالت : أصابعك تؤلمنى ! ..

أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، يبدو شبحه مترنحاً فى الضوء الشاحب، جسده بارد ميت ، رأسه ساخن مشتعل .. يكاد أن يسقط على حشية السرير الحديدى الضيق المتجهم فى ركن الحجرة ، الفراش مهوش ، متسخ ، عرق رأسه أسود على الوسادة ، الكرسى المجاور قديم متآكل صدئ ، عليه بقايا طعام الظهيرة ، كوب فارغ تلتصق بجدرانه بقايا سوداء لشاى قديم ، لم يغسله ، ارتمى باعياء ، وأغمض عينيه ..

عاد ينبش فى أعماق الجب المفتوح ، بأظافره هذه المرة ، بدأ يلهث ..

قالت :

- تعبتْ ؟ !

هتف بضيق :

- يئستْ ! ..

قالت :

- إستمِر ..

ظل يلهث ، إستَمرَ ..

قالت بألم :

- أظافرك تمزق صدرى !! ..

- .....

صرخت بحدة :

- ياوَحش !! ..

يحس ، لأول مرة ، بالرثاء لها ، لنفسه .. يصرخ فجأة فى وجهها :

- لا أجدها . كفى عن تعذيبى ؟! ..

يتشنج جسدها ، وهى تقول :

- إستمِرْ

تبدأ فى ضحك فاجر عنيف ، فينكفئ على فوهة الجب وينفجر ببكاء خشن ممزق !!..

-٤-

ظلال البيوت القديمة ترتمى متهـالكة شاحبة على أرض الطريق الخالى ، مخـتلفة درجات العـتمة ، يتـسلل شبحـه خلالها طويلا ، نحـيلا ، مهـتزاً ، بتسـاند ، يذوب فجـأة فى بؤرة الظلام للباب الذى يفـغر فاه ، فـى العمق . يتردد وقع قدميه على الدرج همسـا خشنا ، ومع استدارة السلم اختفى ظله عندما وقف يلهث .. هتفت به بصوت خافت مرتعش باللهفة :

- إصعد .. إصعد ..

فى ضـوء المصبـاح الذى تمسكه ، يتلمس طريقـه ، تضع المصبـاح على جانب الدرج ، يرتعش الشبـحان ، يلتقيان ، تجـهش - على صدره - ببكاء صامت غـريب فيمتلئ بالخـوف .. نفخ لهب المصباح فانطفـأ ، دخلا ودفع باب المسكن خلفه برفق فانغلق بلا صوت.. أخذت تقبله فى وجهه وعنقه ، تلهث ، وهو مجرد جسد ميت ! ..

قالت بضيق :

- ماذا بك ؟! ..

قال " لا شئ ". صوته ضعيف ، وغريب .

- أتضيق بى ؟! ..

- لا ..

- ألحبنى ؟! .. (صمت) لماذا لا تجيب ؟! .. أتكرهنى ؟! ..

-كفى كلاما ..

- قبلنى إذن .. اعتصرنى .. (صمت) لا تدعنى أحترق وحدى ! .. أتسمعنى ؟! ..

ضغطها بين ذراعيه بقوة ، مرغت رأسها على صدره ، عادت تبكى بخفوت، قادتة إلى غرفة داخلية فى آخر المسكن ، تطل على باحة خلفية مهجورة ، تمتد بعدها الصحراء : تيه مبسوط بلا نهاية تحت الأفق الأسود ، تتناثر على صفحته أشباح أبراج غامضة بعيدة .. أضاءت مصباحا خافتا ثم دفعت الباب فانصفق برفق .. أخذت دموعها تلمع فى الضوء الشاحب ، وهى ترفع عينيها المخضلتين إلى وجهه الجامد ، تمتمت :

- ألا تشتهينى ؟! ..

-٥-

قراءة بكراسة الإنشاء :

* الدنيا جميلة ، شمسها ساطعة ، بيضاء، لا تخلف - أبدا - موعدها، تمنح الأعطاف المقرورة، كلما اشتاقت، دفئها.. سماؤها أيضا زرقاء ، ولازوردية ، يتوه فى رحابتها البصر ، تتسابق على صفحتها قطع السحاب الأبيض المندوف ، يؤلقها القمر العاشق فى الليالى الصافية ، والناس - تحت القبة الفضية - سعداء : فى كل المدن ، فى الصحارى ، يضحكون، يهمسون ، والحب مبذول بلا عذاب : فى الغرف المغلقة ، فى الحدائق، على

الأرصفة.. والأحلام متصاعدة أبداً فى الليالى ، إلى الأعالى بلا نهاية ! ..

قالت له بغيبوبة منتشية ، وقد عاد يقصر الألق العارى بأصابع مجنونة :-

- اقتلنى ، اقتلنى يا حبيبى !..

ضغط أكثر ، عند العنق ، قالت بصوت متحشرج متوسل :

- لا .. تقتلنى ، يا حبيبى ! .. لا ..

- .....

أخذ ينزل الدرج . جسده المترنح ريشة فى مهب ريح يتلاعب به ، تصدم قمة رأسه صورة الجسد الممتلئ العارى وهو يختلج فى الضوء الشاحب ثم يستسلم فى الغرفة الخلفية .. الرأس بشعره الناعم العزير يفترش الوسادة ، يحتضن وجها مستديراً مهزوما ، الشفتان تنفرجان عن مجرد ابتسامة ، لها سحر هادئ ، غريب ، فى ضوء القمر الساقط من خلال زجاج النافذة على الفراش ، وقد انجابت عن وجه القمر سحابة صغيرة بيضاء ، ليتألق الليل : شاعر يا حلوا ، ينساب خلاله صوت شجى عذب يتغنى ، لا يلبث الصوت أن يذوب ببطء فى الصمت .. يتعثر الرجل فينكفئ على وجهه على الدرج ، يحدث السقوط دويا قويا مكتوما ، ينظر القمر ، من فوق ، بعيون باردة ! ..

ديسمبر ١٩٧٤

الشرك

-١-

عند منعطف طريق ، حيث هناك الظلمة جاثمة ، يقف المصباح وحيداً ، يفرش ضوءه الأصفر حوله وشاحا .. عبره ، يمضى العائد طيفا نحيلا متعبا : " وجهك قمرى " ! ... السماء ملبدة بالغيوم ، البيوت على الجانبين تهجع فى البرد والعتمة ، داخلها تتردد الأنفاس - أنفاس النائمين - هادئة وتذوب فى الصمت بلا ملل ! ..

* كم تمضى الساعات معك كحلم !..

* البعد عنك ، يقينا ، حزن دائم ! ..

- متى تعود ؟! ..

- دائماً أعود ..

* فى محطة القطار أروح وأجئ روحاً قلقة ، طائراً كشعاع يود لو يرتد إلى شمسه .. لكنك امرأة محرمة ، عرفتها فى التجوال الدائم فى الأسواق ، بحثا عن قلب يشبعنى دفئاً ! ..

السيارات على جانب الطريق أشباح مهجورة ، ميتة ، لا يراها . عواء الذئاب يسمع تحت الأفق ، فوق صحراء بعيدة ممتدة ، نباح الكلاب فى الشوراع الخالية ، أصوات الليل الغامضة ، لا يخاف !..

* أكره القطار برغمي يحتويني . يبعدني عنك .. عجلاته وهي تدرج على القضبان أقدام تطأ قلبي بحنان لا يرحم !..

ألسنة نيران صغيرة تتوهج في البعد ، في الظلام ، يتحلق حولها بعض الحراس ، يصنعون الشاى ويلتمسون الدفء ..

ينحدر شبح العائد إلى طريق جانبي ويختفي ..

- لكنك حبي الأخير .. ما أعذبك ! ..

الدق يرتفع على باب مغلق لمنزل في منتصف الشارع الضيق : " يدى لا تقوى ، لكنى بحكم العادة .. أغالب نفسى ، وجهك يرنو إلىّ ، يتحرش بي ، يغريني دائماً بالعودة " .. يعاود الطرق بملل : يقف مترقبا أن يضاء نور مسكنه ، أن تطل زوجته ، أن تفتح له على عادتها : " امرأة صابرة ، فقيرة ، بلا مشاعر ... "

- هكذا خلقت !

- تغيرى ..

- لا

- عنيدة ! ..

- لأن الله لم يخلقنى على هواك ؟! ..

- أتكفرين ؟!

- ستظل غريرا ، صغير العقل ، تستولى عليك الكلمات المعسولة ! ..

- لماذا لا تقولينها ؟! ..

- لست أعرفها ! ..

- من أجلها سأهجرك يوما ! ..

- وتعود ..

- لا

- لا بد أن نمل ! ..

تغالب النوم دائما فى انتظاره ، يغلبها ، تغلبه والليالى باردة . يأتى العائد كدأبه فى آخر قطار ، تجئ طرقاته كحجارة تلقى تباعا فى يم الصمت .. تفتح الباب ..

الليلة يتدحرج الهزيم على غير العادة فوق قبة السماء ، يتوهج الجَلَدْ الأسود وينطفئ ، يتململ العائد باعياء .. رذاذ المطر يتساقط ويفرش الأرض بوشاح لامع.. يرتعش ، يرفع وجهه إلى أعلى فيتساقط عليه المطر ، يغمض عينيه حانقا : " كيف يغلبها النوم ؟! " .. يحلم بأن يهرع إلى الفراش سريعا ، ينام بعمق : متعبا ، سعيداً ! .. ريح باردة لا تلبث أن تنشط ، تضرب الأبواب والنوافذ ، تهزها ، تهزه ، تتوقف .. يتدفق المطر بسخاء : " وجهك يرتعش مذعوراً لامعا على سطحه ! " .. هزيم الرعد يدوى ، تضيع فيه طرقاته ، عاودها باصرار ، بقوة ، بلا جدوى .. التصق بالباب ، أخذ يلهث .. ماء المطر يتجمع أسفل الرصيف ، بحيرة كبيرة ، تتسع .. أين البالوعة القديمة ؟! .. لا بد من مكان قريب آمن .. يسير تحت الوابل المنهمر ، بعيداً عن الباب ، يخوض بحيرة الماء بحذر ، يتعثر ، و ويسقط!...

-٢-

القمـر فى ليلة صيفيـة :مستدير ، مـعلق فى سماء صـافية ، تتناثر تحتـها الأضواء وقطـع السحاب الصـغيـرة البيـضاء .. بقـايا قيظ الظهـيرة لا تزال تحملها النسمات القليلة التى تـهب حينا ، والشارع الكبير وسط المدينة لامع بالأضواء ، صخاب بالحركة والعابرين والمركبات ..

قالت له بصوت مرتعش :

- أنا بردانة ! ..

كانا قد غادرا دار السينما وشيكا ، سـارا يتسكعان أمام نوافذ الحوانيت المضاءة .. قالت :

- أنا خائفة ! ..

ضحكَ ، قال بمرح :

- كيف تخافين ؟! ..

- كان المشهد ..

- لكنها سينما !..

- لكن ، أن تجرف سيول الأمطار رجلا سعيدا ، إلى البالوعة ؟! ..

لاذ بصمت مفاجئ ، زايله مرحه ، سحابة صيفية صغيرة تمر بعينيه ..

قالت :

- ماذا بك ؟ ..

- ......

- أخفتك مثلما .. ؟

تضحك .

قال : لا .

ظلا يتسكعان .

عندما زايلا نافذة متجر لعب الأطفال المضاءة ، وسارا ساهمين ، قالت :

- متى نشترى ؟! ..

صوتها يشوبه حزن مستسلم قديم ! ..

قال : يوما ما .. عندما يأتون ! ..

وابتسم .

قال لنفسه بشجن داخلى : ليتنى أستطيع .. قبل أن .. لكننى ..

قالت بصوت يلونه ، هذه المرة ، فرح طفلى :

- أتحبنى ؟! ..

قال : حتى .. كأننا لم نتزوج بعد !! ..

- كأننا ... ؟

ضحكت ، وجمت . أخذت تنظر شاردة ، صامتة ، إلى الأفق الأسود البعيد ..

* * *

ليلة أخرى ..

فوق سور الشرفة كـان القمر متربصا ، لا يريم .. الستارة الشـفافة تطير بفعل النسيم الرقـيق ، تتهدل من جديد ، تحجبهـا عن ظلام الغرف الداخلية الصامتة . شبحها منكمش على ذاته ، تجلس وحدها إلى جانب السور ، وقد انتصف الليل وبرد النسيم .. بقع الأضواء فى النوافذ المتناثرة البعيدة لا تزال تلمع ، تراها كلما شردت ، لا تلبث أن تنطفئ تباعـا .. قالت لنفسها : تأخر كثيراً ! .. لكنه صديقـه .. ألح عليه .. دخلت ، أضاءت النور ، وقفت أمام المرآة تتأمل ملامحها ، يغزوها شحوب بطئ :لكن كيف يتأخر حتى الآن ؟! .. تأملت علب المساحـيق المصفوفة أمـامها ، زجاجـات العطور ، أمسكت علبة الكريم ، أخذت تضع على وجهها بشـرود ، سوف تبدو جميلة - أكثر - هذه الليلة - عندمـا يعود ! .. هل كرههـا ؟ .. ملها ؟! .. لا ، استـمرت تضع المسـاحيق أيضـا ، ثقلت على وجهـها ، أصـبح كوجـه دميـة صغـيرة بلهاء!.. عندما تنبـهت ، حاصرها يأس مفاجئ غـريب فأخذت تلطخ المرآة بالطلاء بحركـة دائرية سريعة ، تلهث ، تنـهار جالسة على المـقعد الصغـير أمام المرآة ، تحتضن رأسها بين ذراعيها ، تبدأ فى نشيج متقطع بطئ ..

-٣-

أخذ يردد بشجن :

- ياليل :

تذوب وجدا ،

سهدا،

شوقا ،

عذاباً ،

دموعا ...

تطول - بالليل - أو تقصر ..

فأنت مهرب ،

أنت مهرب ! ..

هز رأسه ببطء ، ملأ صدره بأنفاسه ، زفرها ، نظر إلى وجه صديقه عبر مساحة المائدة الضيقة بصمت . الملهى حافل بالضوضاء والأنفاس الدافئة .. جلسا فى ركن بعيد ، لكن الضجة دوامة شديدة الدوران ، لا يحسان بها .. راوده أسى وهو يرى عينى صديقه عكرتى الزرقة ، يتخللهما شرايين دقيقة حمراء ، تهدل جلد الوجه أيضا ، امتصت الأيام النضارة .. قال وهو يبتسم بغموض :

- لكن الدنيا .. حلوة !

قال صديقه :

- لكن عندما تكون وحدك .. ؟

- تكرهها ..؟

- لا ..

- تحبها ؟! ..

- لا .

- أحتار معك ! ..

صورة غريبة لوجه طفل تقتحم خـاطره ، يمتلئ فرحا ، تتسلل اليه مرارة ما ، يصبح حزناً.. يحاصره .. قال صديقه :

- ماذا بك ؟!

كانت برودة الليل تتدفق إلى الداخل عبر نافذة مفتوحة مجاورة ..

قال : لا شئ !

حاول أن يكون مرحـا ، لم يستطع ، أخذ يتأمل زجـاجة الشراب المثلج الفارغة أمامه ، كوبه البلورى ، يكسوهما الضباب .. شرد .. الملامح البريئة تناوشـه .. فى قاع الكوب تبـقى ثمـالة حمـراء ، تشاغل بهـا ، أخذ يتـأمل القاع، عبره رأى قمراً يمر ، تتقدمه سحابة بيضاء ..

قال لصديقه معابثاً :

- أتحب القمر ؟! ..

هتف الآخر بحماسة باهتة :

- لا ..

انفـجرا مـعاً بضـحك متشنج أجـوف ، نهضـا ليـغادرا المكان المتـخم بالضجيج والأنفاس ..

فى الخارج ، كان الليل شاعرياً أسود ، بلا قمر ، لكنه يطوق المدينة ..

يوليو ١٩٧٨

رجل فى الظهيرة

الصيف ، فى أوجه ، حار رطب ..

الميدان يشغى بحركة المارة والسيارات ، بضجيج الترام ذى الطابقين ، على القضبان اللامعة تحت شمس الظهيرة ، بصوت البحر خلف السور الحجرى الواطئ ، غير بعيد ، ورغم هوانه كأنه يضرب قلبه ! .. يظل يسير بطيئاً ، لا يدرى إلى أين ، يفكر فى فشله معها بالأمس .. كانت المرأة الصغيرة ، بين يديه ، كدمية بلا حيلة ، أخذ يعبث بجسدها العارى بقسوة ، تأوهت ، بكت ، كانت خائفة .. أفلتها أخيراً وهرب من غرفتها الأرضية المتواضعة فى شارع ضيق .. هام على وجهه حزيناً ، والمدينة تبدو خالية فى ليل متأخر سوف يخاصمه النوم فيه ! .. جاء إلى المصيف يحمل بياض شعره ، خواءه ، يسيران معه على قدمين ! .. كان يبحث عن مغامرة عابرة تملأ لساعة وجدان رجل ضيع فى الأوهام عمره ! .. خلال السنوات ظل كمن يجرى فى سباق غير مجد يجئ ترتيبه دائماً فيه الأخير ! .. حزن حيناً من أجل ما فات ثم نسى ! .. فى ليال أخرى لم تضنه وحدته ، بين جدران أربعة ونافذة مفتوحة تهفهف عليها ستارة مسدلة .. النافذة تطل على بيت آخر .. ثمة امرأة بحجرتها المقابلة يراها - كلما أغمض عينيه - طيفاً فاتناً معابثاً ، على شاطئ رملى ممتد بلا نهاية ، بينما قرص الشمس ، فى الغروب، يصبغ حافة الأمواج تحت الأفق ، يشعلها حريقاً .. عندما يتحرك النسيم تطير الستارة المسدلة ، يطالعه خلفها سرير وثير الفراش تحت

النافذة، يلمع طلاؤه الجديد فى ضوء غامض ، بعض من صوان ملابس ، نصف كومودينو يحمل أباجورة منطفئة ، وجانب مرآة تعكس صورة معلقة على الحائط لامرأة شبه عارية ، باهرة الجمال ، تضج ملامحها بشهوة الحياة! .. يراها بوضوح .. وبدلاً من الفرح يحزن ، يتذكر طفولة تعسة ، وأما ثرية بدينة ، سليطة اللسان ، تسوط به أباه الطيب بلا ملل ، (لم يعد يطابق أحلامها) لا يلبث الرجل أن يغادر البيت وهو يترنح تحت وطأة الألم ! .. وتمر السنوات والمرأة لا تبحث عنه ! .. وكلما نظر الصبى إليها دامع العينين، هتفت به غاضبة : أنت ابن رجل خائب ، تزوجته خطأ فى لحظة ندمت عليها العمر كله ! .. حسنته الوحيدة أنه ذهب ولم يعد !! .. عندما ماتت أمه لم يبكها، ورث كل ما تركته..الآن ، فى الخمسين ، يحيا على ستر مالها ، ويعايش وجه أبيه ، يملأ أحلامه ، يحن إليه ، يحرك فى صدره حزناً مضنياً ! ..

ضجة الميدان تشعره بالدوار ، يركن إلى الرصيف ، يستند إلى حاجزه الحديدى ، عرقه ينثال على وجهه ، يكوى عينيه ، لكنه يروح يتأمل نوافذ الحوانيت ، إلى جانبه .. الباعة أيضاً ، نداءاتهم لا تنقطع ، يضيق بها ، ينظر إلى أقدام المارة شارداً ، تطأ بلاطات الرصيف بدأب ، تبدو أصابعها المصبوغة الأظافر جميلة أحياناً ، من خلال الأحذية المفتوحة ، وصنادل البحر - أخرى محمرة قبيحة ، تعلوها سيقان خشنة عجفاء ، تثير فى نفسه كوامن غامضة محبطة ! .. يعود فيتسكع أمام الواجهات الزجاجية .. لكن المدينة الساحلية تفتنة دائماً ، لا تبدد ضياعه ، لا تخلده إلى راحة ، منارتها

تهدى السفن ، وهو سفينة تائهة تتقاذفها الأمواج ، تلعب بها الرياح ، ورغم ذلك يهرب إليها كل عام ، يغرق في بحرها طوال نهارات مملة ، وعلى الشاطئ جالساً تحت شمسية ملونة ، على عينيه نظارة كبيرة سوداء ، من خلالها يتابع ما حوله ، أجساد نصف عارية ، ممشوقة أو مترهلة ، منكفئة فوق الرمال تحت الشمس .. أطفال يلعبون الكرة ، الراكيت ، يرقبهم بلا اهتمام .. وفى المساء يهرب إلى الشراب ، يحمله إلى أحلام غائمة ، تضعه في بؤرة خوف غامض ، كطفل تاه من أمه فى زحام زاخر بالغربة والضجيج واللهاث .. وهذا البيت الذى ينزل به ، لا يرده صاحبه عن ارتياده ، كلما جاء إليه ، رجل وقور ، وحيد مثله ، جاوز السبعين ، يبقى فى حجرته الأخرى ، يسعل بحساب ، لا يحدث صوتاً حتى لا يزعج ساكن الغرفة الأخرى ، يراه مع كأسه فى الأمسيات ، واقفاً خلف ستارة النافذة يتلصص على امرأة البيت المقابل ، طيفها لا يبدو له سافراً أبداً ! ..

وسط الميدان ، أمام حانوت لبيع الحلوى يتوقف ، تشده الحلوى على الدوام ، لكنها تورثه جفافاً فى الحلق .. الناس يتكاثرون حوله ، فى بقعة ظل ، يحتسون المشروبات المثلجة ، تنبثق عرقاً على الوجوه الساهمة ، الوجوه منشغلة ، منبسطة ، أو مشدودة ، الصدور أيضا مغلقة على ما تحوى! .. رجل مسن ، فى الزحام ، يقف ليلتقط أنفاسه عن قرب ، ينظر إليه ، ملابسه رثة سوداء ، وجهه مستطيل ضامر ، عليه آثار لا تمحى لعذابات قديمة ، جف عودة وانحنى ، عيناه منطفئتان .. لكن شيئاً غامضاً يشده فجأة إلى العجوز ، كأنه يعرفه ، ترى من يكون ؟! .. يود أيضا لو

يذهب إليه ، يسنده ، يحتضنه ، ليقول له بإشفاق : **ماذا بك ؟ من تكون ؟ .. هل تعرفنى؟ !.. ماذا فعل بك هذا الزمان الطويل ، تحمله على كتفيك ؟!.. لكأنك أبى !! .. من يصدق ؟! .. كنت صبياً صغيراً عندما تركت البيت بلا عودة ! ... افتقدتك،حننت إليك ، بكيت فى الليالى شوقاً إليك ولعجزى عن أن أجدك! .. هل تعلم ؟ !.. ماتت معذبتك !!** .. موجات الأفكار والمشاعر تتقاذفه ، يحس بالعذاب ، لم يدر إلا وهو يمسك بساعد العجوز يريد أن يهتف به مهتاج العاطفة : **سيدى ، أنت من تكون ؟! .. قل لى ، أرحنى ، أأنت حقاً من افتقدته طويلاً ؟! .. هل عرفتنى ، رغم طول السنين ؟!** .. كان الرجل يريد أن يعبر الطريق إلى محطة الترام على الجانب الآخر ، عبر به ، صعد الرجل إلى الترام الذى تحرك فى طريقه .. وقف المتسكع جامداً ينظر إلى العربة الأخيرة ذاهلاً ، وهى تختفى فى البعد ، يغطى وجهه براحتيه ، ينفجر فجأة بالبكاء .. بينما المارة حوله يتلكأون ، ينظرون نحوه بفضول ، لكنهم لا يلبثون ، يمضون فى طريقهم ...

فبراير ١٩٩٨



قال لهـا وهى تجلس فى المقعد المقابل ، وكـان ضوء الصباح البـاكر يملأ غرفة الطعام .

- سوف يحضر ضيفنا فى السابعة ، هذا المساء

قالت وهى تنظر فى وجهه بقوة :

- هو رئيسك وتطمع فى رضـاه .. بيده مفـاتيح مسـتقبلك ، وتريد أن يفتح لك الطريق إلى ترقية تأملها ! .. أعرف طموحك الخطر .. وهو أيضا يخيفنى !! ..

هز رأسه بقلق وهو يهرب من عينيها . قال :-

- لا تخافى ! ..

- لكن ، أتريد طعاما بعينه ، يحبه .. قال لك .. ؟

- لا .. ولكنك على عادتك ، سوف تعدين مائدة طيبة ! ..

ساد بينهما صمت إلى حين .

قالت : ألن تفطر الآن ؟! ..

ابتسم شاحبا : لا .. تابعها وهى تنهض ، عيناه تلتمعان بأصداء عواطفه نحوها .. قام ليلبس ملابسه ..

* * *

مستطيل الضوء يفرش ظلام الصالة وصمتها ، وفى المقعد الكبير جلست تتابع خواطرها ، تتلهى بها .. جاء ضيفهما .. عيناه ظلتا تحاصرانها بجرأة طوال الليلة ، تجاهلتهما .. الزوج الشاب يشغل ضيفه بحديث ما ، لكن الرجل ظل مشغولا بها ، أخذ يلتهم الطعام أيضا بنهم ، بسوقية ! .. قسماته الغليظة تستفزها .. تشاغلت عنه بمضغ الطعام على مهل .. الرجل يضحك أيضا بلا سبب ، يحمر وجهه ، يبرز العرق على جبينه فضوء الثريا الهادئ فوق المائدة كان يشع دفئا باهتا ..

قالت لنفسها : رجل سوقى بلا أهمية ! ..

- لكن الترقية إلى وظيفة أعلى يا حبيبتى أمل أطمع فيه بكل جوارحى !! ..

نظرت إليه ولم تجب . طموحه بلا حدود .. تحبه ، يحبها أكثر ، تمضى حياتهما معا هادئة .. فى لحظات ملل قديمة ظنته رجلا ضعيفا .. لكن للشاب الوديع أوقات عناد صلبة . حينذاك تلجأ إلى دموعها ، لا يبالى ، يجلس أمامها صامتا ، أو يقرأ فى صحيفة حتى تسكت ، تهرع إلى المرآة ، أو تدفن وجهها فى يديها ، تهدأ أخيرا ..

لم تصب من الطعام إلا قليلا ، جففت فمها الصغير بالمنشفة بشرود ، دفعت مقعدها ببطء إلى الخلف ، نهضت ، تمتمت دون أن تنظر نحو الضيف:

- آسفة ! ..

قال زوجها للضيف ، وعلى وجهه ابتسامة مرتبكة :

- هى تأكل قليلا .. كما ..

قال الرجل بمرح أبله ، وهى تختفى بالداخل :

- محافظة على قوامها ؟؟ ..

هتف الزوج بحرج : لا .. لا ، هى عادتها لا أكثر ..

قال الضيف بخبث :

- أنت رجل محظوظ ..

أخذ يقهقه ..

* * *

سمعت ثرثرتهما ، بعد ذلك ، وهى منزوية بغرفة النوم . فى المرآة رأت وجهها شاحبا متعبا ، ملامح الرجل البدين فى الخارج تطاردها : أصاب من الطعام حتى التخمة .. عادت تقول لنفسها : رجل سوقى بلا أهمية ! .. أوشكت أن تضحك ، لم تضحك .. كانت تحس بتبلد أيضا ، أغلقت باب الغرفة ، أبدلت ثيابها ، اندست فى الفراش اللين ، أغمضت عينيها ، تحس اعياء شديدا ، لكنها لا تستطيع أن تغفو ..

* خرج زوجها ، منذ حين ، لتوديع الرجل ، سمعت بقايا ثرثراتهما ، صوت الباب يغلق خلفهما ويسود الصمت .

تأخر المساء قليلا . قامت فأضاءت النور . أعصابها لانت واستراحت ، لكنها تبدو حزينة .. خرجت إلى مقعدها الأثير وجلست صامتة ، عيناها معلقتان بلوحة الكانفاه أمامها ، مساحاتها الملونة تبدو لها متداخلة ، بلا تفاصيل ، بقيت جامدة ..

* عندما عاد زوجها ، قال بضيق وهو يجلس إلى جوارها :

- كان الرجل يبدو غاضباً وأنا أودعه ! ..

قاطعته بنشيج خافت ، نظر اليها ، قال بقلق :

- لماذا تبكين ؟ ..

ظلت تبكى ..

قال :

- لكنى لم أقصر أبداً فى وداعه ! ...

جلس منكمشاً حزيناً إلى جانبها فى المقعد الكبير ..

فبراير ١٩٧٨

ثلاث قصص قصيرة

ذنـــب

الطفل الجميل النزق ، وقت البكور ، فى لحظة طيش ، أطلق سهمه إلى قلب الجميلة فى الشرفة المقابلة .. كانا يطلان معا على الحديقة فى الأسفل ، وقد أينعت أزهارها .. جاء الربيع ليزدهر كل يابس ، يخضر برداء البهجة.. رشق السهم في قلب الجميلة فتـأوهت جذلة ، هتفت وهى تلهث فرحا : " ماذا فـعلت بى أيها الـطائش الصغـير ؟! " ..لكن الطفل اسـتتـر ، أخفض رأسه خلف سـور الشرفة ، انحنى إمـعانا فى التخـفى ، إنسل إلى الداخل ، تحت ذراعه يخفى قـوسه دون سهمه ، وفى طـيات ملابسه ، وهو يستشعر ذنباً خفياً غامضاً ! ..

غــــــياب

معصوبة الرأس بمنديل ملون بأشكال الفراشات ، استسلمت للهواجس .. نمل غامض يرسم خطوطه الدقيقة على الجدران حولها فى اتجاهات شتى ، يرسم خرائط التيه ،والليل ملتبس غامض .. يطول الليل لديها وحبيب القلب على سفر فلم يعد بعد . ربط القدر - أو الحب - بينهما إلى الأبد ربما ، لكنها لحظة سوف ترتبط حتما برحيل القطار عن رصيف حياتها - أو حياته - للمرة الأخيرة ! ..

لطول أوقات الغياب يولد الجزع ، يحرك فى رأسها إصرار نمل الهواجس على رسم خرائطه ، تتسع ، تصير عالماً ،وهى جالسة بجوار النافذة ، تطل حينا على الطريق بقميص النوم العارى ، يبرز مفاتنها .. الليلة تفكر فى يوم ميلاده ، دربت حواسها على ألا تنساه ، لشدة ولعها به ، ولخوفها عليه تكاد أن تخفيه فى نسيج لحمها .. تتعلق دوما ، فى غيابه برنين جرس الهاتف ، حتى يعود ، بجرس الباب ، بخيال قادم قد يتراءى من خلف الزجاج ولا يتراءى ، والهدوء حولها جاثم لا يريم ، فمتى يعود ؟!..

القطـــــة

فـرح ببيـته الجـديد ، وإن تطرف مـوقعـه فواجـه حافـة الصحـراء . من الشرفة الصغيرة يرى الرمال الممـتدة بلا نهاية تحت شمس الصيف الحارقة ، وفى الليل - لفرحة - لا يحس بالخوف من الأصوات الغامضة التى تنبعث حـواليـه من الخـلاء اللامـحـدود . هرب من فـئـران البـيت القـديم ، لكن أصدقـاءه القدامى ، ذوى الشوراب والعـيون اللامعـة المتحدية ، تبـعوه إلى موقـعه الجديد .. خلصاء : عـز عليهم فراقـه ! .. لكنه لم يكف عن الفرح وهو يرى ، ذات ليلة ، قطة تدخل من نافـذته ، من الجوار، تموء لـه بصوت حنون . قال لنفسـه : سوف تؤنس وحدته . تودد إليها ، ولتنفرد بـصداقته : سوف تطارد الفئران .. لكنها ذات مسـاء آخر ، ترك فيه عشاءه فى الصالة ، حتى يغيـر ملابسه ، وكان جائعـاً - جاءت كعادتها ، دخلت غـرفته ، رآها تنظر اليه ، وقفت تمسح فمها بقدمها وتموء .. سارت نحو النافذة المفتوحة ، وبهدوء قـفزت دون أن تلتفت اليـه ، وخارج الغرفـة ، على المائدة ، كـــان قد اختفى عشـاؤه ! ..

مايو ١٩٩٧

فهرست

للمؤلف

١ - لا مفر (قصص) - المكتبة الحديثة بالفجالة) -١٩٦٠.

٢ - الصراخ فى الريم(قصص) - مطابع الناشر العربى - ١٩٧٧.

٣ - العذاب فى أرض الله (رواية) - الهيئة المصرية العامة للكتاب-١٩٨٠

٤ - فى لهيب الشمس (قصص) - مركز الحضارة العربية - ١٩٩٨ .

قيد النشر

(١) الليل خلف النافذة (قصص) - الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) الحذاء على العشب (قصص) - الهيئة العامة لقصور الثقافة .

(٣) الطريق والعاصفة (رواية) - مركز الحضارة العربية

(٤) بكـائيــــة للوطـن والغـــربة (قـــصــص) - اتحـــاد الـكتَّاب .

من قائمة الإصدارات

رواية .. قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطانى
مطربة الغروب	جمال الغيطانى
دموع إيزيس	حسنى لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
أنا كنده	كيروجا ترجمة: رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبى فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــد	عبده خال
صعيدى صَح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس أبوولوس ترجمة د. على فهمى خشيم
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخورى

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقى الدجانى
اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
ملكة القرود	محمود عبدالحافظ

شعر ..

العنوان	المؤلف
أول الرؤيا	إبراهيم زولي
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولي
قصائد حب من العراق	البياتي وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطي
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافي
إضاءة في خيمة الليل	علي فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
حواديت لفندي	عصام خميس
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوي
صلاة المودع	صبري السيد
دنيـا تنادينـا	طارق الزياد
إذهب قبل أن أبكي	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدي رياض
غربة الصبح	محمد الفارس
ونس	محمد الحسيني
ليالي العنقاء	محمد محسن
غنمة في حجر صيادها	ناجي شعيب
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد
في مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد

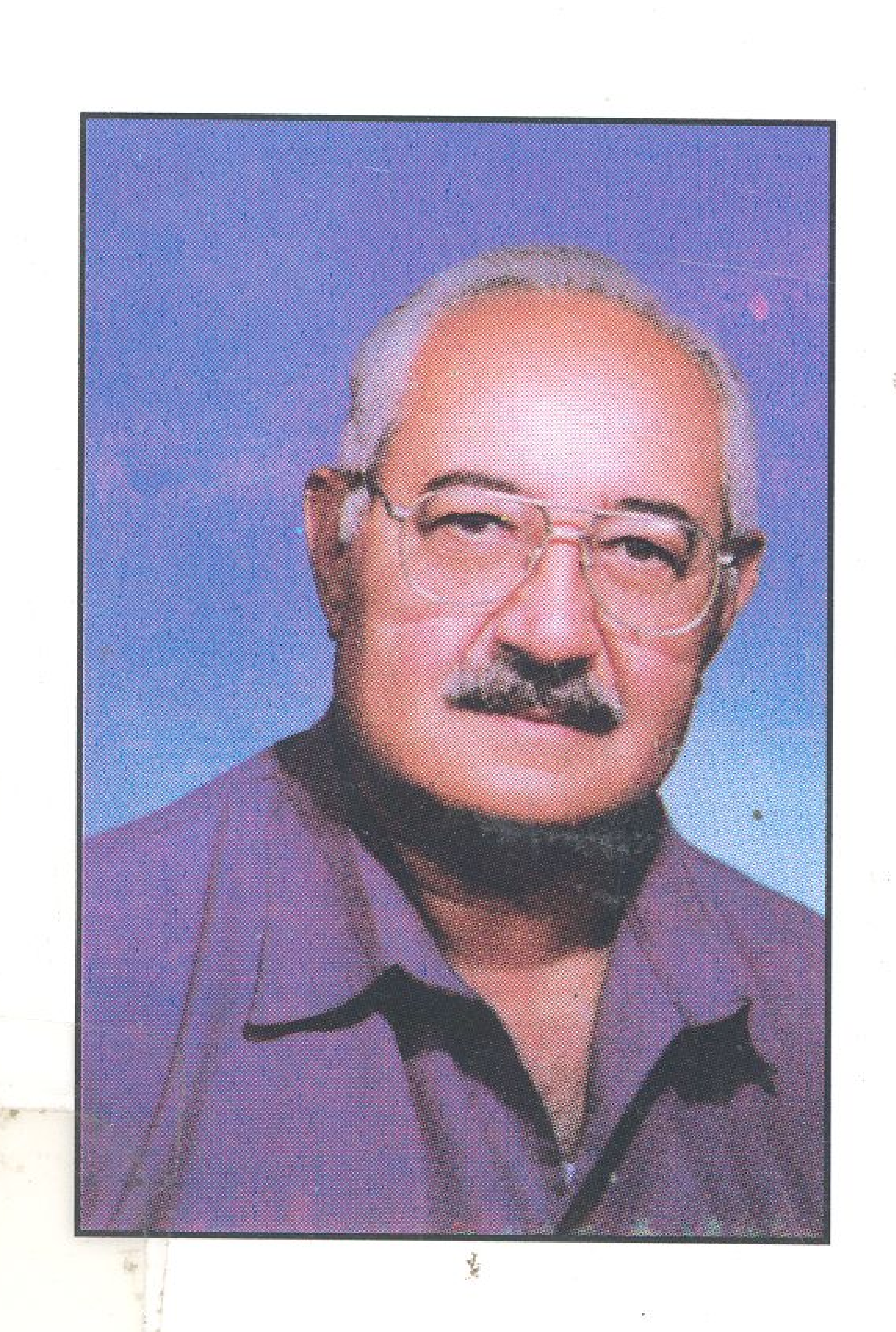
دراسات ..

العنوان	المؤلف
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د أحمد إبراهيم الفقيه
قراءة المعاني في بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد عدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادي
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رحلة الكلمات	د . علي فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربي	د . علي فهمي خشيم
أعلام من الأدب العالمي	علي عبد الفتاح
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدي إبراهيم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د مصطفى عبد الغني

تراث ..

العنوان	المؤلف
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوي
رمضان .. زمان	د . أحمد الصاوي
القصص الشعبي في مصر	إعداد خيري عبد الجواد
إغاثة الأمة في كشف الغمة	
الفاشوش في حكم قراقوش	
الحكمة المدنية لابن المقفع	

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.



فى لهيب الشمس

.. من لحظات السكون ، كلما أتى المساء ، يستمد عزاءه .. يهجع البيت بطوابقه إلى رقاد بعد نهارات حافلة، تتردد أنفاس النائمين هادئة لتدفئ الحجرات ، تصير حيناً إلى لهاث محبوب بين اثنين وقد نام الأطفال أخيراً ! .. يلوذ دوماً بصمت القراءة . الكتب التى أحضرها ليغرق فى سطورها باحثاً عن السلوان : تتكدس على منضدة صغيرة بجوار الفراش الضيق البارد ، بينهما منبه قديم (يتك) طوال الليل فلم يعد يسمعه ، وعندما يأتى سلطان النوم يسلم رأسه إلى الوسادة حتى صباح جديد ، فيهرع إلى عمل هجره لسنوات فى المدينة البعيدة، ليعاود حنينه إليه فى دكانه الذي أغلقه وذهب يبحث عن أحلام قلب يترصده العطش ! .. الكتب تحكى له على الدوام عن عوالم يسودها الحب والعدل والسلام ، عن جنان لا بد أن يصنعها مع الآخرين على الأرض فيمتلئ الكون فرحاً ، وتمتلئ عيناه بالدموع! ..

«الربيع يدق الأبواب»

